

الحياة الدينية والاجتماعية في رام الله من خلال كتاب " شعب فلسطين " للرحالة الأمريكي إيهو غرانت

محمد عثمان الخطيب
قسم التاريخ جامعة النجاح الوطنية
لؤي أبو السعود
قسم السياحة والآثار جامعة النجاح الوطنية
(قدم للنشر في ٢٠٢٣/١٢/٢٤، قبل للنشر في ٢٠٢٤ /٢ /٥)

الملخص:

تسلط هذه الدراسة الضوء على الحياة الدينية والاجتماعية في رام الله من خلال كتاب " شعب فلسطين " للرحالة الأمريكي إيهو غرانت، الطبعة الثانية الموسعة المنشورة في فيلادلفيا ولندن (*Philadelphia and London*) عام ١٩٢١م، وتكمن أهمية هذه الدراسة بأن المعلومات الواردة بها هي نتاج ما دونه المؤلف عن مشاهداته اليومية في رام الله في الفترة الواقعة ما بين عامي (١٩٠١-١٩٠٤م).

أشارت الدراسة إلى أهم الروايات في سبب نشوء رام الله وأهم العائلات التي سكنتها، وتطرقت إلى لحياة الدينية فيها وأهم فئات السكان (المسيحيون والمسلمون) ومذاهبهم وطقوسهم وطرق اختيار رجال الدين المسيحيين ولباسهم، ومهام رؤسائهم، وأهم أعيادهم، وقدسيتها الأماكن الدينية لديهم، والعلاقة بين السكان المسلمين والمسيحيين.

أما من الناحية الاجتماعية فقد تناولت الدراسة أهم عائلات رام الله، وعادات الزواج فيها، والاحتفاء بولادة الأبناء، وحالات الوفاة وما يرافق ذلك من طقوس، ومهام المرأة وواجباتها، وأنواع الطعام والشراب، ولباس المرأة والرجل، والأعياد والمناسبات، وبعض الأحداث التي وقعت في رام الله في ذلك الوقت كالأوبئة والزلازل.

الكلمات المفتاحية: إيهو غرانت، شعب فلسطين، رام الله، الحياة الدينية، الحياة الاجتماعية، الأوبئة

The Socio-Religious Life in Ramallah as Described by the Traveler Elihu Grant's Book: "The People of Palestine "

Mohammed Othman Alkhateeb
Department of History, An-Najah
National University

Louay Abu Al-Saud
Department of Tourism and
Antiquities, An-Najah National
University

Abstract

This study sheds light on the socio-religious life in Ramallah as described by the traveler Elihu Grant's book: " The People of Palestine ". The second edition has been published in Philadelphia and London in 1921 AD. The importance of this study lies in the information in the book which is the result of Grant's daily observations in Ramallah in the period between the years (1901-1904).

It refers to the most important narratives of the reason for the emergence of Ramallah, the most important families that inhabited it, its religious life, its religious groups (Christians and Muslims) and their doctrines and rituals and the ways of choosing Christian clerics and their dress. It also tackles the tasks of their superiors, their most important festivals, the sanctity of their religious places, and the relationship between Muslims and Christians there.

As for the social life, the study deals with the most important families of Ramallah, its marriage customs, the celebration of the birth of children, the deaths and the accompanying rituals, the tasks of women and their duties, the types of food and drink, the dress of women and men, holidays and occasions, and some of the events that occurred in Ramallah at that time, such as epidemics and earthquakes.

Keywords: Elihu Grant, Palestine today, Ramallah, religious life, social life, epidemics.

تعددت مظاهر تغلغل النفوذ الأجنبي في فلسطين، ولم تقتصر على الجانب السياسي، بل شملت الجوانب الدينية والاجتماعية والثقافية أيضًا، ونشطت الدول الأجنبية في شراء الأراضي، وتأسيس الجمعيات التنصيرية، والكنائس، والمدارس، في الوقت الذي بدأ فيه سيل الهجرات اليهودية بالتدفق، بتشجيع من القناصل الأجانب، تزامنًا مع تنامي نشاط الحركة الصهيونية في أوروبا. وفي الوقت نفسه، وصل إلى فلسطين عدد كبير من الرحالة الأجانب الذين تعددت دوافعهم وأهدافهم بين دينية توراتية، وإنجيلية مسيحية، وسياسية؛ بهدف إجراء الدراسات الكفيلة بإنجاح سياسة دولهم الاستعمارية، وحرصوا خلال رحلاتهم على تدوين تفاصيل الأوضاع الجغرافية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية.^١

ومن الجدير بالذكر أن معظم الكتب التي ألفها الأجانب حول فلسطين في القرون الماضية لم تُترجم إلى العربية، منها كتاب: شعب فلسطين (*The People of Palestine*) للبروفيسور الرحالة الأمريكي إيهو غرانت، الذي كتبه بعد إقامته في القدس، ورام الله (١٩٠١-١٩٠٤م)، ونظرًا لأهميته؛ فقد اخترنا الطبعة الثانية الموسعة المنشورة في فيلادلفيا ولندن (*Philadelphia and London*) عام ١٩٢١م؛ لعمل هذه الدراسة من خلاله

التعريف بالمؤلف والكتاب :

وُلد غرانت عام ١٨٧٣م في مدينة ستيفنزفيل (*Stevensville*) الأمريكية لأبيه وليام ثوماس (*William Thomas*)، وأمّه أماندا لويس (*Amanda Lewis*). تخرّج في جامعة بوسطن (*Boston University*) عام ١٨٩٨م، وبقي فيها لإكمال دراسته العليا. وفي عام ١٨٩٩م تزوّج من ألي غرانت (*Almy Grant*) التي كان لها دور كبير فيما وصل إليه، ولا تزال رسائله التي كان قد أرسلها إليها حول نشاطاته التنصيرية في الشرق محفوظة في أرشيف كلية سميث (*Smith College*). وفي عام ١٩٠٠م، رُسم غرانت كاهنًا في الأسقفية الميثودية البروتستانتية^٢، فزار فلسطين، وعمل مُشرفًا على مدارس الفرنديز^٣ الأمريكية في رام الله والقدس، وعاد عام ١٩٠٤م إلى مساتشوستس (*Massachusetts*)، ثمّ أُلّف عددًا من الكتب حول الحياة الريفية في فلسطين. وبعد نيله درجة الدكتوراة عام ١٩٠٦م في الأدب الإنجيلي، وحصوله في العام التالي على درجة (*S. T. B*)، عُيّن أستاذًا في كلية سميث (١٩٠٧-١٩١٧م)، ثمّ انتقل إلى كلية هافرورد (*Haverford College*) في بنسلفانيا (*Pennsylvania*)

^١ حمودة، سميح، رام الله العثمانية (دراسة في تاريخها الاجتماعي)، ط١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ٢٠١٧، ص١٣٨
^٢ البروتستانت: مذهب مسيحي نشأ إثر حركة الإصلاح الديني التي قادها مارتن لوتر وتدعو إلى تحرير الفرد من سلطان الكنيسة، وجعله مسؤولاً أمام الله فقط رجع بداية دخول الطائفة على القدس إلى العام ١٨٢٠م عندما بدأوا بعمليات التنصير بالقدس^٤ وفي عام ١٨٥٠ تم الاعتراف بهم كملة رسمية داخل الدولة العثمانية، القضاة، أحمد، نصارى القدس، ص١٢٤، الخطيب، مصطفى، معجم، ص٧٥.

^٣ الفرينديز (الكويكرز): قدموا من الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٦٩م وأسسوا لهم مدرسة في رام الله لا تزال قائمة إلى الان، ابو ريا، رام الله، ص١٢٦.

حتى عام ١٩٣٨م، عمل فيها مديرًا للدراسات العليا، ومشرفًا على بعثتها الأثرية في بيت شيمش، الموقع الكنعاني الواقع على بُعد ثلاثين كيلومترًا غربي مدينة القدس.

كتب المؤلف معلوماته بلغة واضحة بعيدة عن التعقيدات اللغوية، وتميزت عمومًا بالدقة، والموضوعية، والحياد، والصدق، وأظهر صورة تعكس العلاقات الحسنة بين الفلاحين الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين، ولكنّه أظهر في غير موضع تفوق المسيحيين في شكل بيوتهم ونمط بنائها، والمظهر العام لقراهم، واهتمامهم بالنظافة، ونجاحهم في الأعمال والمهن، وغيرها.

وأشار المؤلف إلى أنّ كتابه لا يشتمل على جميع جوانب حياة الفلاحين، بل يعتريه كثيرٌ من مظاهر النقص، فقد أهمل ذكر المدارس الإسلامية، مع العلم أنّها كانت قد ازدادت خلال عهد السلطان عبد الحميد الثاني، الذي عاصره المؤلف، كما أحجم عن تناول أنماط التعليم ومناهجه وطرائقه في المدارس المسيحية التي أشار إليها، وبخاصة أنّه قد عمل مديرًا لمدارس الأصدقاء الأمريكية ما يقرب من ثلاثة أعوام، كما رسم صورةً مبتورةً حول جوانب مهمةٍ أخرى؛ فأشار إلى قبّة الصخرة، ولم يذكر المسجد الأقصى، وبدأت مظاهر النقص أيضًا في الصنائع والحرف والمهن اليدوية، والطقوس الدينية التي أشار إلى بعضها باختصار يفقد إلى الشمول، وصبّ معظم جهده في الكتابة حول المعتقدات الشعبية والخرافات الدينية، ولم يلتزم المؤلف بوحدة الموضوع خلال سرده الأحداث، بل انتقل من جزئية إلى أخرى قبل الانتهاء من الأولى، ثمّ عاد بعد ذلك لإكمال ما تبقى. واشتمل الكتاب على تكرارٍ للمعلومات ذاتها التي تخصّ بعض الجزئيات في غير موضع، ووردت فيه بعض المعلومات الخاطئة، منها ذكره أنّ نابلس الحالية قائمة على أنقاض مدينة شكيم الكنعانية، ويبدو أنّ هذا الأمر يمثّل حالة عامّة عند عديد من كُتاب فترته

رام الله (الموقع والتأسيس)

تتربع رام الله على قمم جبال وسط فلسطين والتي تُعدُّ أنموذجًا للقرية الفلسطينية المتطورة، وتقع على بُعد عشرة أميالٍ شماليّ القدس، ويمكن الوصول إليها من مدينة القدس عبر طريق النّقل الممتاز بين القدس ونابلس، الذي فُتِح للاستخدام في مايو من عام ١٩٠١م.^١

وكانت قرية رام الله قد تأسست، بناءً على الرواية المتداولة، على النحو الآتي: كان أحد المسيحيين يعيش في الشوبك^٢ بالقرب من وادي موسى^٣، لديه طفلة صغيرة، وفي إحدى الأيام زاره مسلمٌ، وخلال تبادلهم أطراف الحديث ظهرت الطفلة، فأخذ المسلم يلاطفها بكلماتٍ جميلة، وحينها فهم أبوها أنّه يرغب بالزواج منها عندما تكبر، لكنّه لم يأخذ ذلك على محمل الجدّ، فقال مجاملًا: "هي لك"، وعندما كبرت، جاء المسلم طالبًا (عروسه)، فرفض الأب، وحينها ذكره بوعده، إلّا أنّ الأب ظلّ مُصِرًّا على رأيه، وفي الوقت نفسه، خافت الأسرة المسيحية من نتائج هذا الرّفص، فقرّرت الرّحيل وانطلق الأب وأسرته، ومعهم إخوته الأربعة مع عائلاتهم، ووصل الجميع إلى ريف شمال القدس، واختاروا تلالًا مشجرةً، وهي الموقع الحاليّ لرام الله.^٤

السكان:

بلغ عدد سكان قضاء رام الله عام ١٩٢٢م ٣٠٠٠٥ أنفس منهم ٢٤١٦٨ مسلمًا و ٥٨٣٠ مسيحيًا و ٧ يهود، وفي احصائية عام ١٩٣١ ارتفع العدد إلى ٣٩٠٦٢ نسمة منهم ٣١٨٩٧ من المسلمين و ٧١٦٤ من

^١ الدباغ، مراد، بلادنا فلسطين، دار الهدى، كفر قرع، (د.ت)، ج٨، ق٢، ص٢٣٣، شراب، محمد، معجم بلدان فلسطين، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ص٤٠٨، قدورة، يوسف، تاريخ مدينة رام الله، مطبعة رفيدي، رام الله، ط٢، ١٩٩٩، ص٥، أبو ريا، خليل، رام الله قديما وحديثا، اتحاد رام الله الأمريكي، رام الله، (د.ت)، ص٣، ابو حجر، موسوعة القرى والمدن الفلسطينية، دار أسامة للنشر والتوزيع، الاردن - عمان، ط٢٠٠٣، ج١، ص٣٧٦، الموسوعة الفلسطينية الميسرة، رئيس التحرير ناصر الدين الأسد ط٢٠١٣، هيئة جائزة سليمان عرار للفكر والثقافة، اروقة للدراسات والنشر، عمان، ص انظر خارطة قضاء رام الله في قائمة الملاحث ملحق رقم

(١) ٢٩٠، Grant, The People Of Palistine, p187

^٢ الشوبك: قلعة حصينة في اطراف الشام بين عمّان وأيلة والقلمز قرب الكرك، ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧، مج٣، ص٣٧٠

^٣ وادي موسى منسوب إلى موسى بن عمران عليه السلام، واد قبلي بيت المقدس بينه وبين أرض الحجاز وهو في جنوب الأردن قرب مدينة الشوبك، ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد ٥، ص٣٤٦

^٤ إضافة إلى ذلك هناك عدة روايات لانتقال المسيحيين من منطقة الكرك في شرقي الأردن خلال العهد العثماني إلى فلسطين خاصة عائلة حدادين التي استقرت في منطقة رام الله وقد أعادها المؤرخون إلى أسباب أمنية أو لأسباب اقتصادية وللبحث عن لقمة العيش، حمودة، سميح، رام الله العثمانية (دراسة في تاريخها الاجتماعي) مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ٢٠١٧، ص٦٦، البخيت، محمد عدنان، دراسات في تاريخ بلاد الشام، أمانة عمان الكبرى، عمان، ج٢٠٠٧، ص٢٢٨، ابو ريا، خليل، رام الله قديما

وحديثا، اتحاد رام الله الأمريكي، رام الله، ١٩٨٠، ص٩-١٠، Grant, The People Of Palistine, p.٢٠٦، ٢٠٦

المسيحيين ويهودي واحد، وفي عام ١٩٤٥ قدروا بـ ٤٧٢٨٠ نسمة منهم ٣٨٩٩٠ مسلما و ٨٢٩٠ مسيحيا ولا يهود بينهم^١

أما سكان بلدة رام الله في بداية العهد البريطاني ١٩٢٢م فكان فيها ٣١٠٤ نسمة، منهم ٢٩٧٢ مسيحيا و ١٢٥ مسلما و ٧ يهود، وبذلك شكّل المسيحيون ما نسبته ٩٦% من عدد السكان مقابل ٤% نسبة عدد المسلمين^٢، وفي عام ١٩٤٥ قدروا بـ ٥٠٨٠ منهم ٤٤٤٠ مسيحيا و ٦٤٠ مسلما، وبذلك شكّل المسيحيون ما نسبته ٨٧.٤% مقابل ١٢.٦% نسبة عدد المسلمين وفي عام ١٩٦١ (العهد الأردني) بلغوا ١٤٧٥٩ منهم ٨٢٦٠ مسيحيا و ٦٤٩٩، وبذلك شكّل المسيحيون ما نسبته ٥٥.٩% من عدد السكان مقابل ٤٤.١% نسبة عدد المسلمين مسلما^٣

ويلحظ أن سبب تراجع أعداد المسيحيين بعد هذه الفترة مردّه هجرة المسيحيين إلى أمريكا وغيرها التماسا للرزق، فقد بلغ عدد المغتربين من أبناء رام الله عام ١٩٥٣م ٢٥٨٠ شخصا في حين كان عدد سكان المدينة في تلك السنة ٤٥٠٠ نسمة^٤

الناحية الدينية:

يبدو أنّ الرّحالة غرانت خصّ رام الله بهذه الرحلة كونها قرية مسيحية ولقربها من مدينة القدس لذا أراد تسليط الضوء عليها، فالدين يُعدّ أحد أهمّ مكوّنات الثقافة المجتمعيّة ومقوماتها، ويشكّل الأساس الذي يتمحور حوله سلوك أفراد المجتمع، وعاداتهم، وتقاليدهم، فصار جزءًا من مواطنتهم حيث يشغلّ الدين حيزًا كبيرًا في أنماط حياة الفلاحين التي لا يمكن فهمها بعيدًا عن دراسة الأحوال الدينيّة، فالدين جزءٌ من فطرتهم، وغريزتهم التي جُبلوا عليها، وتمتدّ جذوره بعمق في الموروث السامي والكنعاني^٥، ومع ذلك فإنّهم ليسوا متعصّبين في ممارستهم لطقوس دينهم، ويحرصون على أن تكون متوافقةً مع قناعاتهم، وضميرهم، وتظهر قوة العصبية الدينيّة بوضوح في المجتمع القرويّ أكثر من المدنيّ^٦. ويتوزع سكان رام الله آنذاك بين الأغلبية المسيحية والأقلية المسلمة، وقد فصلّ المؤلف في حياة ومعتقدات كل منهم على النحو الآتي:

المسيحيون:

^١ الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، ط٤، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨، ج٢، ص٢١٧، Shaheen, naseebKApictorial

History Of Ramallah, Arab Institute for Research and Publishing K1922K, p24

^٢ الفرخان، يحيى، قصة مدينة رام الله والبيرة، ص٥٠

^٣ قدورة، تاريخ مدينة رام الله، ص١٣٧

^٤ الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ص٢٤١-٢٤٢، قدورة، تاريخ رام الله، ص١٣٧، يونس، نائل، وآخرون، التغيير الاجتماعي في مدينة

رام الله والمورفولوجيا والترتيب والاقتصاد غير الرسمي، سلسلة من الأبحاث المنفردة تصدرها مجلة افاق، جامعة بيرزيت، ص٨

^٥ Grant, The People Of Palistine, p.158

^٦ Grant, The People Of Palistine, p.110

يذكر غرانت أن الحياة الكنسيّة في البلاد تصطبغ بصبغة سياسيّة، ولهذا تميّزت الشّخصيّات الدّينيّة بمهارتها السّياسيّة، وعادة ما تُستثمر ثروة الكنيسة، وذكاء رجالها، وبراعتهم؛ من أجل الحفاظ على الامتيازات والحقوق؛ ما خلق رباطاً راسخاً بين الانتماء الوطنيّ والكنيسة، وتتبع هذه الصّلة من وحدة الطّائفة المسيحيّة، ومدى التزامها الجمعيّ بعباداتها، وتقاليدها، وحقوقها. ويعود السّبب الرئيس لتفوّق المجتمع المسيحيّ اقتصادياً إلى عدم التزام المواطن المسيحيّ بالخدمة العسكريّة؛ لأنّ المسلمين فقط هم المؤهلون لذلك، أمّا المسيحيّون فيدفعون ضريبة إضافية بدلاً من الخدمة^١ ما يجعلهم متفرّغين أكثر للأعمال الصّناعيّة، والتّجاريّة، فبرعوا فيها، على الرّغم من التّمييز المُمارس ضدّهم في المحاكم، والإدارة.

تُعَدُّ الكنيسة اليونانيّة الأرثوذكسيّة الجّهة الدّينيّة المسيطرة في رام الله، وكما جرت العادة في جميع أنحاء الشّرق الأدنى، فإنّها تختار رئيس الكهنة، وكبار رجال الدّين من ذوي الدّم اليونانيّ^٢، ويشغل الأجنبيّ الذين يتحدّثون اللّغة اليونانيّة المناصب الرّئيسة في الكنيسة الأرثوذكسيّة^٣ التي توّضع في القرية الكبيرة تحت مسؤوليّة رئيس الكهنة، يساعده كهنة محلّيّون، يُدعى الواحد منهم خوري، وقد يكون الأخير تاجرًا قبل اختياره لمنصبه، وليس لديه أيّ خلفيّة عن عمله، وقد يكون متزوّجًا عند اختياره، وفي مثل هذه الحالة، يحتفظ بزوجته. ومن مهامّ الخوري المساعدة في أداء الصّلوات في النّاس لمدة أسبوعٍ بالتّناوب، ولهذا عليه الإلمام باللّغة العربيّة قراءةً، وكتابةً^٤. وينحدر رئيس كهنة الكنيسة في رام الله من أصلٍ يونانيّ كرّيتيّ، وكان قد بدأ عمله فيها عام ١٨٩٩م، وهو أعزب، لطيف، جيّد المظهر، ذو شعرٍ طويلٍ يربطه من الخلف، كما يفعل سائر الكهنة اليونانيّين، ويرتدي ثوبًا أسود طويلاً، وقبّعة سوداء أسطوانيّة دون إطار^٥، ويتحدّث قليلاً من اللّغة العربيّة، ويحترم الرّؤار، ويقدم لهم الضّيافة المناسبة. ويتّخذ الكاهن لنفسه خادمًا ينحدر من إحدى الجزر اليونانيّة، يحمل المبخرة في الصّلوات والاحتفالات الدّينيّة. وهناك أربعة كهنة أو خوارنة آخرين للكنيسة: حنّا، وأيوب، وقستندي، وسالم، من مواطني رام الله، يتحدّثون اللّغة العربيّة بالطّبع، ومتزوّجون، وهم اجتماعيّون في علاقاتهم مع النّاس، منخرطون في الحياة العامّة للقرية، يشكّلون فيها حلقة وصلٍ بين الحياة العامّة والحياة الكنسيّة. وأحد هؤلاء الأربعة ثريٌّ يعمل مصرفياً، حيث يُقرض الفلاحين المال بنسبة ربحيّة ربويّة مرتفعة، بالاتفاق مع الحكومة، التي يصل مقدار حصّتها إلى تسعة في المئة، ولكنّ هذه النّسبة تتضخّم إلى أكثر من الضّعف في الممارسة العمليّة؛ بسبب جشع الطّرفين على حساب الفلاح المُقترض^٦.

^١ ابو ريا، رام الله قديماً وحديثاً، ص ٢٧ Grant, The People Of Palistine, p.44,45

^٢ Grant, The People Of Palistine, p.204

^٣ Grant, The People Of Palistine, p.122

^٤ Grant, The People Of Palistine, p.122

^٥ Grant, The People Of Palistine, p.204

^٦ حمودة، رام الله العثمانية، ص ٣٢٠ ., Grant, The People Of Palistine, p205

وعندما يحدث نقصٌ في عدد الخوارنة في رام الله، ترشّح العائلات مَنْ يسدّ مكانه، وحيث يذهب الشّخص المُختار إلى البطريك في القدس؛ من أجل ترسيمه، وتسليمه الرُّموز الدّالة على هذه الوظيفة. ويتلقّى الخوارنة رواتبهم الشّهريّة، التي تتراوح بين ستّة دولارات، وعشرة، من البطريكية، يوزّعها عليهم كاهنهم الأكبر. وتتقاضى الكنيسة في رام الله رسوماً من المواطنين لقاء إتمام معاملات الأحوال المدنيّة، حيث تتقاضى دولارًا ونصفًا على كلّ حالة زواج، وأربعين سننًا على كلّ حالة وفاة، واثنين وعشرين سننًا على المعموديّة.^٢

ويتقيّد مسيحيّو الكنيسة اليونانيّة الذين يتبعون التّقويم الغربيّ وفق النّظام اليوليانيّ، بصرامة بتعاليم الكنيسة في مُختلف شؤون حياتهم، ويُعدّ عيد الفصح^٣، أو القيامة أعظم المناسبات الدّينيّة لديهم، وفيه ينتهي الصّوم الكبير^٤، حيث يمتنعون خلاله عن تناول أيّ طعامٍ حيوانيّ، أو مطبوخٍ، أو يحتوي على أيّ كمّيّة مهما كانت من الرّبدة، أو الحليب، أو الموادّ الحيوانيّة الأخرى^٥، ولا يُسمح بإقامة حفلات الرّفاف في أثناء فترة الصّوم. وترتبط عديد من الطّقوس والعادات والتقاليد بأعياد المسيحيّين، ومناسباتهم الدّينيّة، ففي الأسبوع السّابق لعيد الفصح يحتفلون بغسل القدمين أمام كنيسة القيامة^٦ في القدس، ويُشعلون الشّموع في عيد ظهور النّار المقدّسة^٧ في اليوم السّابق

^١ المعمودية: كانت المعمودية شائعة قبل المسيحية، ولكن عندما جاء يسوع تبنى هذا الطقس وجعله فريضة في الكنيسة المسيحية، أي جعل التعميد بالماء باسم الثالوث الأقدس علامة على التطهير من الخطيئة والنجاسة وعلامة الانتساب رسميا في كنيسة المسيح، جهشان، أعيادنا وإيماننا، ص ٣٦.

² Grant, The People Of Palistine, p122

^٣ عيد الفصح المجيد: هو عيد قيامة السيد المسيح من القبر بعد ثلاثة أيام من موته و بعد آلامه وصلبه وموته، ويطلق عليه أيضا عيد يوم القيامة، لأنه يذكر بقيامة السيد المسيح من القبر منتصرا على الموت، جهشان، موريس، أعيادنا وإيماننا، المركز اللوثري للخدمات الدينية في الشرق الأوسط، بيروت، (د.ت)، ص ٧٤

^٤ الصوم الكبير: هو الإمساك عن الطعام اقتداء بالنبي موسى عليه السلام الذي صام أربعين نهارا وأربعين ليلة على جبل سيناء، وقد أخذت بعض الكنائس من حياة السيد ورفيقه في التجلي هذه الفترة الأربعينية، وجعلت الصوم الأربعيني، السابق لعيد الفصح قانونا، عبد الملك، بطرس، وآخرون، قاموس الكتاب المقدس، مجمع الكنائس في الشرق الأوسط، بيروت، ط ٢٠٦٢، ص ٢٠٦٢

⁵ Grant, The People Of Palistine, p١٢٣

^٦ كنيسة القيامة: كنيسة القيامة: تقع في حارة النصارى بخطّ الدركاه، وتعرف أحيانا بكنيسة الضريح المقدّس، بنتها هيلانة أم قسطنطين سنة ٣٣٥م، وتولّت إدارتها طائفتا الروم والإفرنج. انظر: العليمي، الأنس الجليل، ٢ ج، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٣، ج ٢، ص ٥٣، العارف، المفصل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف، القدس، ط ٢، ١٩٨٦، ص ٥١٧، اليعقوب، ناحية القدس الشريف، البنك الأهلي للنشر، عمّان، ط ١، ١٩٩٢، ج ٢، ص ٤٦٢.

^٧ عيد الظهور الإلهي (الغطاس): هو ذكرى اعتماد الرب يسوع في نهر الأردن على يد يوحنا المعمدان، ويعرف العيد بذلك لأنه عندما كان المسيح يتعمد في نهر الأردن، ظهرت أقانيم الثالوث الأقدس، الأب والإبن والروح القدس في الوقت نفسه، جهشان، أعيادنا وإيماننا، ص ٣٥

لعيد الفصح، وفي أحد الشَّعَانِين^١، أو أحد النَّخِيل ترقُّص الفتيات على بيدر درس الحبوب في القرية. وفي مساء الجمعة العظيمة^٢، يحضر النَّاس إلى الكنيسة؛ للصَّلاة؛ ما يتيح الفرصة لغير المؤمنين لاقتحام منازل القرية، وسرقتها^٣.

وتشكّل الأعياد والمناسبات الدِّينِيَّة تقويماً مناسباً؛ لتحديد وقت هطول الأمطار، ففي الخريف، يأتي عيد الصَّليب^٤ في نهاية سبتمبر، فيستبشر الفلاحون بقدمه، وفي عيد القديس جورج (الخضر)، يتوقَّع السكان أن تهطل الأمطار بكمية كافية، فيستقبلها المزارع بحرارة الأرض، وبذر الحبوب، وفي عيد الصَّليب، والقديسة بربرة^٥ في شهر ديسمبر، يتوقَّع الفلاحون أن المطر "سيدخل من كلِّ فتحة للفأر في المنزل"؛ أي أن هطوله سيكون غزيراً جداً، وفيه تُعدُّ الأمهات لأطفالهنَّ أطباق القمح المسلوق، وعليها قليل من الحلوى. وعندما تحدث حالات مُناخِيَّة غريبة، كأن يسقط المطر في شهر مايو، يعتقد المسيحيون أن أمراً سماوياً سيحدث، وقد يكون مؤشراً إلى عودة المسيح^٦.

ويعتقد المسيحيون بقديسيَّة المعالم الدِّينِيَّة القديمة، وبخاصَّة الكنائس، والأديرة، بما فيها البيزنطيَّة، والصليبيَّة، ولا تقتصر هذه القديسيَّة على المَعْلَم نفسه، بل على ما يحيط به من آثار، وأشجار، ويظهر هذا التقليد بوضوح؛ بهدف تكريس المُلكِيَّة الكنسيَّة على هذه المواضع في مواجهة محاولات السَّيطرة من جانب الدَّولة، أو أصحاب الدِّيانات الأخرى. فهنا وهناك في البلاد تُرى أشجار الفاكهة المجانيَّة التي يُعدها السُّكَّان ذات أهميَّة دينيَّة وروحيَّة، كتلك المزروعة في الأراضي الكنسيَّة، ومنها واحدة على الطَّرِيق المؤدِّيَّة إلى بيت عور التَّحتا^٧. وفي

^١ عيد الشعانين (أحد الشعانين) يمثل ذكرى دخول السيد المسيح إلى المدينة المقدسة (القدس) ويكون عادة قبل عيد الفصح بأسبوع واحد، جهشان، أعيادنا وإيماننا، ص ٥١

^٢ الجمعة العظيمة (الجمعة الحزينة) هو عيد ذكرى آلام السيد المسيح وصلبه بعد محاكمته من قبل رؤساء الدين اليهودي، وموته الكفاري على الصليب ليقوم بعمل الغداء العظيم حتى يخلص الناس من شروره وخطاياهم، جهشان، أعيادنا وإيماننا، ص ١٣

^٣ ابو ريا، رام الله قديماً وحديثاً، ص ٨٥، Grant, The People Of Palistine, p124

^٤ عيد الصليب: عيد تحتفل به الكنيسة المسيحية الشرقية إذ يذكر المسيحيين بأهمية الصليب في مناسبتين: أولها اكتشاف صليب المسيح عام ٣٢٧م في مدينة القدس، وثانيها استرجاع الإمبراطور هرقل خشبة الصليب من الفرس والطواف به وذلك عام ٦٢٨م، فتحي الكنيسة هذه الممارسة أو هذا العيد بإقامة الشعائر الدينية والخدمات الكنسية احتفاءً، جهشان، أعيادنا وإيماننا، ص ٩٥

^٥ القديسة بربرة: ولدت في أوائل القرن الثالث الميلادي في نيقوميديا (آسيا الصغرى)، كان أبوها (ذيو سقورس) غنياً جداً ووثنياً متحمساً، يكره المسيحيين ويزدرهم، تعرفت على المسيحية من خلال خدام القصر، واعتنقت المسيحية ورفضت الزواج لهذا السبب، وأخذت تعلن العداء للوثنية، وحكم عليها بقطع رأسها ونفذ ذلك والدها. لها مكانة عند المسيحيين الشرقيين إذ يحتفلون بعيدها يوم ٤ ديسمبر، البستاني، بطرس، دائرة المعارف، ج ٥، دار المعرفة، بيروت، ص ٢٧٥

^٦ حمودة، رام الله العثمانية، ص ٧٥ Grant, The People Of Palistine, p124

^٧ بيت عور التَّحتا: قرية بناها الكنعانيون تقع في الجهة الغربية من رام الله، وترتفع ١٣١٠ أقدام عن سطح البحر، تشتهر بالزيتون والتين والعنب، شراب، محمد، معجم بلدان فلسطين، دار المأمون للتراث، دمشق، ط ١٩٨٧، ص ١٩٥.

الأرض التابعة لكنيسة الطيرة^١. نوعان من أشجار التين، لا تزال ثمارها مجانيةً للزوّار، أما خارج الجدران المحيطة بهذه الكنيسة فتوجد أشجار زيتون يُستخدم زيتها لصالح الكنيسة^٢.

ومن ناحيةٍ أخرى، يعتقد عديدٌ من سكّان رام الله المسيحيين بوجود القوى الدنيئة الخفية، ودورها في الحفاظ على الممتلكات الكنسية، ويروي الأهالي أنّ رجلاً كان يحفر بفأسه في أرض كنسية، فوجد وعاءً نحاسياً يحتوي على كنز، وعندما حاول إزالة التراب عنه أصيبت يده ورجلاه بالشلل^٣.

وأخيراً، يرتبط أهالي رام الله بعلاقاتٍ حسنةٍ مع أهالي القرى المجاورة؛ مسلمين، ومسيحيين، وتطغى في كثير من الأحيان رابطة الجوار على رابطة الدين، ففي إحدى الحالات النادرة، نشأ نزاعٌ بين مسيحيي ورام الله والبيرة، فوقف مسلمو البيرة إلى جانب مسيحيي قريتهم، وزحفوا موحدين؛ لمهاجمة الطرف الآخر. وفي الحقيقة لم يكن مقبولاً بشكلٍ عامٍ لدى مسلمي البيرة محاربة المسيحيين، أو مساعدة طرفٍ ضدّ الآخر، ولكن ما فرض ذلك هو واجب الوقوف إلى جانب الجار القريب في وجه البعيد^٤.

وعادةً ما تتعرض القبور، والخرب، والكنائس، وغيرها من المعالم الأثرية للتخريب والحفر من المنقّبين غير الشرعيين؛ بهدف السطو على مقتنياتها، وبيعها للسّياح الأجانب، فضلاً عن التخريب الذي يلحق بها، وفي معظم الأحيان، لا يقم هؤلاء المنقّبون بمعلوماتٍ صحيحةٍ عن هوية المواقع التي عثروا فيها على القطع الأثرية؛ ما يفقدها كثيراً من قيمتها التاريخية، ويحرم الباحثين من فرصة التعرف إلى طبيعتها، وطرق الدفن القديمة. ومن الجدير بالذكر أنّ أحكام القانون العثمانية المتعلقة بالآثار صارمةٌ للغاية؛ ما يجعل البحث العلميّ الرسميّ مستحيلاً، كما أنّ الإدارة الرّسمية وقوانينها ليست ناجعةً وفاعلةً بما يكفي لمنع ظاهرة السرقة، والتخريب^٥.

المسلمون:

لم يتحدّث غرانت عن الحياة الدنيئة لمسلمي رام الله الذين يشكّلون أقليةً مقارنةً مع المسيحيين، كما لم يتطرّق إلى المعالم المعمارية الإسلامية فيها باستثناء مقام إبراهيم الخليل الذي يُعدّ من أهمّ معالم القرية، وبشكل عام يقول: أنّ المسلمون يؤدون الصلوات الخمس المفروضة عليهم، وهي الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، فضلاً عن النوافل، ويُعلن عن حلول وقت الصلاة من خلال الأذان، حيث يعتلي المؤذّنون المآذن لهذا الغرض،

البيرة: تقع في قضاء رام الله وهي متصلة بها وتبعد عن القدس شمالاً ب ١٦ كلم، وترتفع عن سطح الأرض ٨٨٤م، شراب، معجم بلدان فلسطين، ص ٢١٤.

² Grant, The People Of Palistine, p٢١٥-٢١٣

³ Grant, The People Of Palistine, p٢١٥

⁴ حمودة، رام الله العثمانية، ص ٢٥٣، Grant, The People Of Palistine, p١٥٩،

⁵ Grant, The People Of Palistine, p156٢٠٩، ص ١٥٩، التراث الشعبي المقدسي،

ويؤدون دورهم في نشوة من الحماس الديني، ويتميز صوتهم بالصفاء، والجمال، وبخاصة خلال أذان الفجر وبصورة عامة، فإن صوت المؤذنين من الأصوات التي تطرب لها الأذن الأوروبية^١. وفي نهار شهر رمضان، يلتزم المسلمون بالصيام التزامًا صارمًا، وينغمسون خلال الليل بالأكل؛ حتى يتمكنوا من صيام النهار وهم يتمتعون بالقوة اللازمة لأداء أعمالهم^٢.

ويتغير موعد حلول رمضان في كل سنة وفق التقويم الهجري، فيأتي خلال سنوات في كل الفصول. ويعاني الفلاحون من إشكالية تحديد وقت بداية الصيام، وحلول موعد الإفطار؛ لافتقار قراهم إلى إشارات التحذير، والإعلان؛ ما يضطرهم لصيام فترة أطول مما ينبغي، ومنهم من يمكنه موقعه الجغرافي من سماع بعض الإشارات البعيدة، وبالتالي فإنهم لا يتمكنون من الإمساك عن الطعام فجرًا، وتناول الفطور مساءً في الوقت نفسه، بعكس المدن التي تتوفر لسكانها هذه الإشارات؛ ففي القدس -على سبيل المثال- تُسمع عن طريق صوت المدفع، وفي الخليل يتجول حامل الطبل في حوالي الساعة الثانية صباحًا؛ لينبه الناس من أجل الاستيقاظ للتخصير لوجبة السحور، وأداء الصلاة، وعند غروب الشمس، تُطلق طلقات البندقية؛ لإعلان حلول موعد الإفطار، وعادة ما يجلس أفراد العائلة لتناول طعامهم على الأرض على شكل دائرة. وأما الجهة المخولة بالإعلان عن حلول عيد الفطر (بيرم بالتركية) هي السلطة الحاكمة في القدس، حيث تُطلق الطلقات من البنادق ليلة العيد^٣.

مقام إبراهيم الخليل^٤:

يُعد من أهم معالم القرية، يقع على يسار الطرف الغربي من شارع السوق، وكان في السابق مسجدًا، يرتبط في أذهان الناس ارتباطًا روحياً وثيقاً بالمسجد الإبراهيمي في الخليل، ويتكوّن من غرفة يواجهها فناءً صغيراً فيه شجرة توت، وفي الركن الشمالي الشرقي درج خارجي يُمكن للمرء أن يصعد من خلاله إلى السطح، ويقع باب الغرفة في الزاوية الشمالية الغربية، وتعلو الباب سقفيّة من الحجر المشغول، كانت في الأصل عموداً صغيراً، يبلغ عرضها ست بوصات، وتشتمل السقفيّة على قطع حجري دائري في الجهة اليمنى قياسه ست بوصات ونصف، ويوجد للمدخل إطاراً جانبيّاً خارجيّ بارزاً، طوله تسع وعشرون بوصة، وعرضه ثلاث بوصات، وفي الجهة اليمنى داخل المدخل، يوجد لبنة عقد لقوس، وهناك قطعتان من الحجر المخدّد مُدمجتان في جدار المبنى، أما أحجار الزاوية

¹ الدراويش، البعد الديني الإسلامي، ص ٢١١، Grant, The People Of Palistine, p119

² ١٢٠ الدراويش، البعد الديني الإسلامي، ص ٢١١، Grant, The People Of Palistine, p120

³ Grant, The People Of Palistine, p121

^٤ مقام إبراهيم الخليل: يقع في وسط البلدة القديمة لرام الله ويحظى باحترام شديد عند سكان رام الله القداماء، وكان أهل البلدة يعتقدون أن إبراهيم الخليل هو حاميهم وحامي بلدتهم، وأن رام الله لن تتعرض لأي أذى ما دامت في جوار وحماية الخليل، أبو ريا، رام الله قديماً وحديثاً، ص ٧، نيروز، إبراهيم، رام الله (جغرافياً تاريخ حضارة)، دار الشروق، رام الله، ط ٢٠٠٤، ص ١٦٥

الشَّمَالِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ من الجدار فهي ذات حجمٍ جيد، أكبرها هو سبع وعشرون بوصة × أربع عشرة، ويوجد في الجزء العلويّ من الباب مقبسٌ حجريّ^١.

أما الغرفة من الدّاخل فمقصورةٌ بشكلٍ جيّدٍ، ويبلغ ارتفاع سقّها خمسة عشر قدمًا، وهناك عمودٌ مُدمجٌ في الجدار الشَّرقيّ من الغرفة، يبلغ طوله تسعة أقدام، وأربع بوصات، وفي جدارها الجنوبيّ محراب القبلّة، عمقه تسع وثلاثون بوصة، وعرضه ثمانٍ وخمسون، أما الواجهة الخارجيّة لمحراب القبلّة، فهي بعرض قدمين في كلّ جانبٍ، ويوجد في جدارها الغربيّ تجويفٌ مربعٌ مثل الخزانة، وفي الجدار الشَّرقيّ مكانٌ لجرّةٍ كبيرةٍ مخصّصة للماء، وثلاثُ حوافّ صغيرةٍ تحمل مصابيح الزيت التي بلغ عددها تسعة وثمانين، وتتولّى نساء رام الله المسؤوليّة عنها، فمن عادتَهنّ زيارة المقام، وتقديم الصَّلوات لإبراهيم الخليل؛ للاستشفاء، والتّقرب إلى الله، كلّ يوم خميس، في وقتٍ متأخّرٍ بعد الظُّهر^٢.

ويسود اعتقادٌ أنّ المسجد وفناءه ممتلكاتٌ حميّةٌ من إبراهيم الخليل، ولا يمكن سرقة أيّ شيءٍ من محتوياتهما، ولهذا يضع النّاس بعض ممتلكاتهم في فناء المقام؛ لقناعتهم أنّ أحدًا لن يجرؤ على المساس بها، ويعتقدون أنّه إذا ما سرق شخصٌ شجرة التوت، أو خرّب أيًّا من ممتلكات المقام، فإنّ لعنة الله والخليل ستحلُّ عليه، ولهذا يجدر بكلِّ مَنْ يراه أن ينهره. ولا يقتصر تقديس مسجد إبراهيم على المسلمين وحسب، فالمسيحيّون أيضًا ينظرون إلى إبراهيم على أنّه قديسهم وراعيهم، وكثيرًا ما يتوجّهون من خلاله بالابتهالات، والدّعوات، والتّضرّعات عند الخوف، أو المحنة. وعلى يمين مدخل ساحة مقام الخليل بيتٌ للضيافة كان الفقراء والغرباء يأوون إليه؛ لتناول الطّعام المجانيّ الذي تناوبت العائلات على توفيره^٣.

ومن أهمّ الممارسات الدّينيّة الفلاحيّة عند سكان رام الله التعلّق بأضرحة الأولياء الصّالحين، والمشايخ، والقديسين، ومقاماتهم، التي غالبًا ما يقديس بعضها المسلمون والمسيحيّون على حدٍّ سواء، ومن أبرز المعالم المعماريّة الدّينيّة التي تُشاهد في المدن، والقرى المسلمة، بالإضافة إلى المساجد والمآذن، الأضرحة، والمقامات ذات القباب البيضاء، والخضراء التي تقع عادةً على التلال، وفي سفوح الجبال، والمناطق المرتفعة، ويلجأ إليها النّاس للحماية، والتّعبّد، والتّبرُّك، والتّقرب إلى الله، والدّعاء، وطلب الشّفاء من الأمراض، كما يزورها الحجاج، والرّحالة المسلمون، والأوروبيّون خلال تنقّلهم بين الأماكن المقدّسة^٤.

^١ أبو ريا، رام الله قديما وحديثا، ص ٨، نيروز، رام الله (جغرافيا تاريخ حضارة)، ص ١٦٥

Grant, The People Of Palistine, p ١١٣

^٢ أبو ريا، رام الله قديما وحديثا، ص ٨، نيروز، رام الله، ص ١٦٥ Grant, The People Of Palistine, p114

^٣ حمودة، رام الله العثمانية، ص ٥٦ Grant, The People Of Palistine, p114

^٤ أبو ريا، رام الله قديما وحديثا، ص ٩ Grant, The People Of Palistine, p11

وعادة ما يذهب النَّاسُ؛ مسلمون، ومسيحيون، وبخاصَّة النَّساءِ للصَّلاة، والابتهاال في المقامات، وعند أضرحة المشايخ والصَّالحين والقديسين، والأشجار المقدَّسة؛ بهدف الدعاء من خلالهم للإنجاب، وشفاء المرضى، ويترك الزَّوَار فيها قطعًا من الخرق والملابس؛ تكريمًا، وتذكيرًا لهم بضرورة الاستجابة للدَّعوات، ويضعون أيضًا مصابيح الزَّيْت داخل كَوَات جدران، ودهاليز المقامات والقبور، وممرَّاتهما^١

ويبدو أنَّ رام الله كانت تضمُّ بعض الدَّراويش المسلمين، ويعتقد البعض أنَّهم من ذوي الكرامات، ففي إحدى المرَّات، شوهد أحد سكَّانها المسلمين يستقلُّ العربة مع المسافرين من القدس، يرتدي قُبْعَةً مدبَّبةً مبطَّنةً باللِّباد وكِفِيَّةً خضراء، ويستعين بدفتر ملاحظات؛ لقراءة تعويذات لم يتوقَّف عن النَّتمَّة بها، ثمَّ يغمض عينيه، ويدير رأسه يَمِّنة ويسرة، ويصرخ، ثمَّ يتوقَّف، ويستأنف النَّتمَّة من جديد. وذات مرَّة على الطَّرِيق نفسها، ركض درويشٌ آخر مسافةً كبيرةً خلف عربة النَّقل، وكان مسلَّحًا بما يشبه الرُّمَح، فمازحه الفلاحون كما لو أنَّه طفل^٢.

الناحية الاجتماعية:

ينكوِّن مجتمع رام الله من خمس حمائل، هي: الحدَّادة، وإبراهيم، وجرجس، والحساسنة، وشقارة. ويكاد عدد أفراد حمولة الحدَّادة يتساوى مع أفراد الحمائل الأخرى^٣، وتقسَّم الحدَّادة إلى أربع عائلات فرعيَّة، هي: شراكة، وعوض، ويوسف، وأبو جغب^٤. ويوجد في القرية ثلاثة مخاتير: واحدٌ لليونانيين، وآخر للروم الكاثوليك، والثالث للبروتستانت، يديرون شؤونها، ويمثِّلونها عند السُّلطات المحليَّة^٥. وفي عام ١٩٠٣م، عيَّنت فيها الدَّولة مديرًا يتبع لمحافظة القدس، أو متصرِّفها، الذي يمارس تُجاه القرى سياسةً إداريَّةً صارمةً، ويتولَّى شخصٌ يُقال له النَّاطور مهمَّةَ تحصيل الضَّرائب من الفلاحين مقابل أجرٍ سنويٍّ قيمته سبعون مجيديَّة^٦.

الزَّواج:

^١ ابو ريا، رام الله قديما وحديثا، ص ٩ Grant, The People Of Palistine, p ٩٣

^٢ عبيدات سليمان، دراسة في عادات وتقاليد المجتمع الاردني، الأهلبي للنشر Grant, The People Of Palistine, p118 عمان، (د.ت)، ص ٢٦٩-٢٧٠

^٣ ابو ريا، رام الله قديما وحديثا، ص ١٤ ، قدورة، تاريخ مدينة رام الله، ص ١٢، الدجاني، أمين حافظ، المدينتان التوأم رام الله والبيرة، (د.ن)، (د.م)، ١٩٩٣، ص ٨٨-٨٩

^٤ حمودة، رام الله العثمانية، ص ٢٥٢ ، Grant, The People Of Palistine, p٥١

^٥ المجيدي: عملة من الفضة تساوي عشرين قرشا صاغا أو ثلاثة وعشرون قرشا شروق، أبو ريا، رام الله، ص ١١٨، قدورة، تاريخ مدينة رام الله، ص ٤١

^٦ Grant, The People Of Palistine, p١٥٠

^٧ Grant, The People Of Palistine, p١٥١ ابو ريا، رام الله قديما وحديثا، ص ٢٧

يُعدّ الزّواج من المواضيع المهمّة التي تشغل الآباء والأمهات في المجتمع القرويّ، ويسعى الآباء إلى تزويج أبنائهم وبناتهم مبكراً بأفضل طريقة ممكنة، ولّما تجد فتيات غير متزوّجات، ولا يكون الزّواج بإرادة الزّوجين، واختيارهما؛ لأنّه حالة تُملّحها ظروف المجتمع القرويّ ومتطلّباته، وبخاصّة أنّ الزّواج هو الوسيلة الأساس التي تُبنى بوساطتها العائلة الكبيرة، من خلال الإكثار من إنجاب الأبناء^١، ففي رام الله، حُرِمَ رجلٌ كبيرٌ وثريٌّ من نعمة الأبناء، فتزوَّج امرأةً أخرى؛ بهدف الحصول على الذّريّة، مخالفاً تعاليم الكنيسة، وتقاليد المجتمع، مستغلاً قوانين البلاد التي لا تمنع من القيام بذلك، ففُصلَ من الطّائفة، وأصبح مثلاً للعار، منبوذاً في نظر المتديّنين، وسائر أهل القرية الذين طالبوا بإنزال العقوبات القاسية به، ولكنّه لم يُرزق بأطفالٍ من زوجته الثّانية، فعَدَّ النَّاسُ ذلك من علامات غضب الله عليه^٢.

وفي الغالب، فإنّ العائلة لا تغرب النّكاح، حيث يُختار الأزواج من أبناء العائلة، وبناتها نفسها، ومما يُروى أنّ شاباً من عائلة بارزة أحبّ ابنة صاحب بستان الثّين الواقع بجوار بستان والده، ولكنّ والد الفتاة رفض زواجهما وبقي الشابُّ المحبط رافضاً الزّواج من فتاةٍ أخرى، واعتزل النَّاس، والشؤون الاجتماعيّة، وعاش وحيداً في أحد الأودية القريبة من قريته، ويعتقد القرويّون أنّه سيصبح كاهناً^٣. ومن ناحيةٍ أخرى، لا يوافق الآباء عموماً على السماح بتزويج الابنة الصغرى قبل الكبرى^٤. أمّا الأرملة فلا تُجبر على الزّواج، بل بإرادتها، ورغبتها، وموافقتها، وعندما تتزوَّج يكون مهرها أقلّ من مهر الفتاة البكر، لكنّها تحصل على حصّة أكبر من الهدايا من والدها^٥. وفي بعض الأحيان، يحاول الآباء تجنّب المدفوعات التّقديّة عن طريق زواج البَدَل^٦؛ ما يُسهم في توثيق العلاقات بين الأجيال المتعاقبة للعائلات، والقبائل^٧.

وبعد الزّواج، تصبح الزّوجة الجديدة عضواً في أسرة زوجها، ومن المتوقّع أن تؤدّي واجباتها المنزليّة إلى جانب حمايتها، وعليها أن تتّصف بحُسن التّدبير، وتجنّيب البيت مصروفاتٍ غير ضروريّة، وعليها أن تصون

^١ ابو ريا، رام الله، ص ٨٠

^٢ هيلما غرانكفست، أحوال الزواج في قرية فلسطينية، ترجمة: خديجة قاسم واخلاص Grant, The People Of Palistine, p49 القنونة، المركز العربي للبحوث ودراسة السياسات، الدوحة- قطر، ط٢٠١٥، ص ٩٥

^٣ الدجاني، المدينتان التوام، ص ٥١-٥٣

^٤ قدورة، تاريخ مدينة رام الله، ص ١٠٥، غنيم، خالد اسماعيل، عادات الزواج وتقاليد في البلاد العربية، دار الياقوت للطباعة والنشر، عمان، ط٢٠٠٧، ص ٨٩، هيلما، أحوال الزواج في قرية فلسطينية، ص ٨٨

^٥ ابو ريا، رام الله، ص ٨٥، غنيم، عادات الزواج، ص ٩٠، عرنيطة، يسرى، الفنون الشعبية في فلسطين، وزارة الثقافة، السلطة الوطنية الفلسطينية، فلسطين، ط١٩٩٨، ص ٣، ص ١٣٠

^٦ الدجاني، المدينتان التوام، ص ٥٤، غنيم، عادات الزواج، ص ٩١، عرنيطة، الفنون الشعبية الفلسطينية، ص ١٣١

^٧ حمودة، رام الله الغثمانية، ص ٣٢٦ صالح، أحمد رشدي، الأدب الشعبي، مكتبة Grant, The People Of Palistine, p.53-54 النهضة المصرية، القاهرة، ص ٢٣٠

لسانها، والأهم من ذلك كله إنجاب الأطفال، وبخاصة الذكور، الذين تشترك عادةً مع الرجل في تفضيلهم على الإناث، وإذا قصرت في أيٍّ من واجباتها، فإنَّها تُغضب زوجها، وأسرته^١.

الولادة والوفاة

لعلَّ من أسمى مظاهر الفرح والبهجة عند الفلاحين قدوم المواليد الجدد، وبخاصة إذا كانوا ذكورًا، ليصبحوا في المستقبل من شباب العائلة ورجالها، ولهذا تجدهم متحيزين للذكور، ويشعر أغلبهم بخيبة أملٍ كبيرة إذا لم يشكّل الأولاد الجزء الأكبر من أبنائهم؛ فالأولاد يزيدون من حجم العائلة، وقوتها، وثروتها، وأهميتها بين العائلات، ذلك أنَّهم عندما يتزوجون يجلبون معهم إلى بيت الأب زوجاتهم، ثمَّ ينجبون الأبناء، وعندما يموت الزوج تعتني أسرته بالزوجة وأبنائها، وإذا تزوجت هذه الأرملة، فإنَّ أولادها اليتامى يلتحقون بعائلة أبيهم، ويظلون يحملون اسمها، وأمَّا البنت فتلتحق بأسرةٍ أخرى، ويصبح أبنائها جزءًا من عائلة الزوج؛ أي أنها ستذهب لنقوية أسرةٍ أخرى، بعيدًا عن أسرة أبيها التي آوتها، وربَّتها، وأطعمتها. وهذا لا يعني أنَّ الآباء بعاملتهم يُكثرون الكره لبنايتهم، فهناك كثيرون ممَّن يحبونها حبًّا جمًّا^٢.

وعند ولادة طفلٍ جديدٍ في الأسرة، تذهب إحدى النساء لتزفَّ الأخبار السارة إلى الأب؛ طمعًا في تلقي هديةٍ ما، ويوقر الأب الفاكهة، والحلويات، وغير ذلك من الطعام اللذيذ للمهنيين، والمهنيئات، وبخاصة إذا كان المولود ذكرًا، وتكون الأعطيات أقلَّ عندما تكون أنثى، وبعد أن يُرزق الأبوان بالولد البكر يمنحانه اسمًا، ويصبحان: أبو فلان، وأمَّ فلان^٣. وتدلُّ بعض الأسماء على الدين الذي ينتمي إليه حامله، فعلى سبيل المثال: عبد الرحمن، ومحمَّد، ومحمود، وحسن، وزيد، كلُّها أسماء تدلُّ على أنَّ أصحابها مسلمون، والأنثى التي تُسمَّى هاجر هي مسلمة، ويدلُّ اسم حنَّا للذكر، وهانا للأنثى على أنَّ حاملها مسيحيون، أمَّا خليل، وموسى، ودياب، وعزيز، وغانم، وفريد، فلا علاقة لها بدين حاملها، وكذلك الأسماء الأنثوية: حلوة، وأنيسة، وحبيبة، وصبحة. ومن الأسماء اللطيفة: ميلادة، وتعني أنَّ الفتاة قد وُلدت في عيد الميلاد، وكذلك تقاحة، وهو اسم أنثويٍّ جميلٌ لفتاة وُلدت في عائلة مسيحية في رام الله، ومن الأسماء أيضًا فرحة، ونجمة. وليس من اللطيف أن تُسمَّى المولودة تامم، وكافية؛ ما يعني أنَّ الطفلة غير مُرحَّب بها، وغالبًا ما يُطلق على كثيرين ألقابًا ما تلبث أن تلتصق بسرعة بالأفراد، والعائلات، كالأخرس، والشيطان، وصرصور^٤.

¹ حمودة، رام الله العثمانية، ص ٣٢٧، صالح الأدب الشعبي، ص ٢٣٥-٢٣٨، ٤٨، ٥٤، ٦٣، Grant, The People Of Palistine,

² حمودة، رام الله العثمانية، ص ٣٣١، ٦٥-٦٣، Grant, The People Of Palistine,

³ السعداوي، نوال، دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، المؤسسة ٦٦-٦٥، Grant, The People Of Palistine, العربية لدراسات النشر، بيروت، ١٩٩٠، ص ٤٣.

⁴ صالح، الادب الشعبي، ص ٢٤٧، ٧٤، Grant, The People Of Palistine,

وتتولّى القابلةُ رعايةَ الطّفل حديث الولادة، وتغسله، وتدليكه بالملح والزّيت، ولقّه بالقماش لمُدّة أربعين يومًا، ولا تسمح لأحدٍ بالقيام بهذه المهامّ غيرها؛ فهي تشعر بالغيرة على صلاحياتها، وكرامة مهنتها، ولا تتحمّل أيّ تدخّل. وبعد الأربعين يُقام احتفالٌ عشاءٍ يتخلّله مراسيم تعميد الطّفل، ولا يُفطم مبكرًا، بل تُرضع بعضه عامين كاملين، أمّا الطّفل الأخير فلا يُفطم إلّا بعد بلوغه الرّابعة، أو الخامسة من عمره، وحينها تُحضّر الأطعمة اللّذيذة؛ لتحلية لثّته الصّغيرة؛ حتّى ينسى حليب أمّه. وفي أحد الأيّام، شوهد طفلٌ حديث الولادة في إحدى بيوت رام الله، يبدو بصحّة جيّدة، ويرتدي لفافاته الصّغيرة الضّيقة، وكان قد نام للتوّ، وسجّي على صينيّة قشّ دائريّة من النّوع المُستخدَم لتغطية وعاء الخبز الخشبيّ، ووُضعت الصّينيّة فوق سلّة قشّ ضحلة مستديرة من السّلال التي يوضع فيها القمح، وكان الطّفل على ارتفاع حوالي ستّ بوصات من الأرض، والأم ترقد على فرشة بجانبه، ولأسرة هذا الطّفل ثلاث فتيات، ولم يكن هناك أولادٌ، فقد توفّي اثنان منهم سابقًا^١.

وعلى صعيدٍ آخر، إذا ما توفّي شخصٌ في القرية، يُغسل، ويُكفّن، ويُحمّل إلى المقبرة، ويُبدي السّكان قدرًا كبيرًا من الحزن خلال المشاركة في الجنازة، ويتأوبون في حمل الجسد، ولا تقتصر المشاركة على أهالي القرية فحسب، بل يحضرها الوافدون من القرى المجاورة^٢، الذين يُرودون بالطّعام والمأوى في أثناء بقائهم إلى جانب أهل المتوفّي. وبعد وضع الميّت في القبر، توضع فوقه ألواحٌ حجريّة؛ بهدف حمايته، ثمّ يُهال التّراب في القبر، وتُلقى فيه أثقل الحجارة؛ حتّى لا تتمكّن الصّباع، وغيرها من الحيوانات من الوصول إلى جسده، ومن المعتاد حراسته عدّة ليالٍ، وقد يلجأ أهل المتوفّي إلى وضعه في تابوتٍ خشبيّ^٣.

وبعد حدوث الوفاة، تجتمع النّسوة؛ للتّعبير عن الحزن في المقبرة إن كانت قريبة، وإن كانت بعيدة، ففي إحدى ساحات البلدة، وغالبًا ما تكون بيدر درس الحبوب. وفي إحدى المرّات، توفي رجلٌ مسيحيّ من رام الله يُدعى بطرس، زوج نعمة، فاجتمعت أكثر من أربعين امرأة تحت شجرة تينٍ في قطعة أرضٍ صغيرةٍ للنّواح عليه. ومن أجل هذا الغرض سخّم وجوهنّ، وشكّلن دائرةً، وبدأن بالنّواح، والدوران البطيء على شكل رقصةٍ جنازيّة، يردّدن عبارات الحزن، وكانت رؤوسهنّ مكشوفةً، وملابسهنّ رتّةً، وخلال اللّطم كان شعرهنّ يعلو، وينزل على رقابهنّ وأكتافهنّ بصورةٍ عشوائيةٍ^٤. وعادةً ما يستمرّ الحداد على الميّت فترةً طويلةً، وخلالها يستقبل أهل المتوفّي المعزّين القادمين من القرى الأخرى^٥، وتمتنع النّساء عن تغيير فساتينهنّ، أو غسلها لأشهر. وعادةً ما تُحدّد قبور عامّة

¹ Grant, The People Of Palistine,p.66، موقع جريدة الفداء، جمالّة، يسرى، صورة المرأة في الأمثال الشعبيّة، <http://fedaa.alwehda.gov.sy>

^٢ ابو ريا، رام الله، ص ٨٦

³ Grant, The People Of Palistine,p99-100 ، ص ٢٦٢، الادب الشعبي، صالح،

^٤ قدورة، تاريخ مدينة رام الله، ص ٩٩

^٥ قدورة، تاريخ مدينة رام الله، ص ٩٩

النّاس بحجارةٍ ثقيلةٍ غائرةٍ قليلاً في الأرض، أمّا الشيوخ والأعيان فيبنى فوق قبر الواحد منهم هيكلٌ حجريٌّ مستطيلٌ يشبه الصُّندوق، ويوضع الملائط في أعلى القبر، مع نقوشٍ دينيّةٍ، وشعريّةٍ باللّغة العربيّة^١.

وتُستخدَم دار الصّيافة لإيواء الرّجال من أقارب المتوفّى، والمشيعين الغريباء، والأصدقاء بعد الانتهاء من مراسم الجنّازة، حيث يُصطحبون إليها لتناول الطّعام، وبخاصّة المنسف^٢ المكوّن من الأرز، واللّبن، ولحم الضأن، والخبز، ثمّ يجلسون فيها على الأرض أيّامًا يتحدّثون، ويستقبلون المعزيّن، ويشربون القهوة، ويدخّنون السّجائر^٣، فيساهم كلّ ذلك في جعل أهل الميّت يصرفون النّظر عن حزنهم. أمّا النّساء فيعقدن بيت العزاء في منزل الميّت^٤.

مهامّ المرأة وواجباتها:

اعتاد الغربيّون على الشّفقة على المرأة الآسيويّة والشرقيّة عموماً، ولا يزالون؛ بسبب حالة البؤس التي تعاني منها، وفق اعتقادهم؛ نظراً للقصص المتداولة عندهم عن الحرّيم التّركي، والطفلة الأرملة الهنديّة، والقدم الصّينيّة المشوّهة. وتجدر الإشارة إلى أنّ سلوك المرأة البدويّة في فلسطين، ونمط حياتها ثابتان لا يتغيّران، أمّا بخصوص الفلّاحات في القرى، فيعشنّ وفق الطّروف الحيّاتيّة القرويّة، شأنهنّ في ذلك شأن الرّجال، مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصيّة المرأة في الحقوق، والواجبات؛ إذ لا تستطيع دخول المجالات والحدود التي أقرّ العرف أنّها من صلاحيّات الرّجل، وواجباته؛ وبمعنى آخر، فإنّ لكلّ مجاله وحدوده^٥، وهذا لا ينفي وجود عديد من المهامّ المشتركة التي تقوم بها بشكلٍ دائمٍ إلى جانب الرّجال، كحصاد المحاصيل.

وتتأثّر المرأة الفلسطينيّة، مثل جميع نساء العالم، بالعادات والتّقاليد المُلزمة، وعليها مراعاتها، وتقديم فروض الطّاعة لها، على نحوٍ يُشعرها بأمانٍ، قد لا يتوفّر لعديد من النّساء الغربيّات على الرّغم من حياة الشّقاء التي تعيشها؛ فعندما يذهب الرّجل إلى السّوق، أو الحقل، أو مع الحيوانات، يترك العمل المنزليّ كلّهُ تقريباً للنّساء، وصغيرات السّنّ، حيث تقع على عاتقهنّ معظم أعمال الأسرة والبيت الصّعبة، بأساليبها، وأدواتها، وأنماطها البدائيّة

¹ Grant, The People Of Palistine,p100-103

^٢ المنسف: هو فتيّت الخبز أو الشراك يدار عليه مرق اللحم الكثيف وفق ذلك يوضع الأرز المغفل بالسمن البلدي ثم يكسد عليه اللحم قطعاً كبيرة، قدورة، تاريخ مدينة رام الله، ص ٩٧

^٣ قدورة، تاريخ مدينة رام الله، ص ٩٧

⁴ Grant, The People Of Palistine,p,64-66, , بيت الشعر الفلسطيني، رام الله، ط ١، ٢٠٠٨، ص ٢٠٤-٢٠٦، حمودة، رام الله العثمانية، ص ٢٨٦، نيروز، رام الله ص ٢٥٢

⁵ Grant, The People Of Palistine,p,48، نيروز، رام الله، ص، نزال، رياض، العوامل السياسيّة والاجتماعية المؤثرة على الدور القيادي للمرأة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بير زيت، ٢٠٠٧، ص ٨١، ٢٥٢،

المُتعبَة، فضلاً عن كثرة الإنجاب. ومما لا شكَّ فيه أنَّها تحبُّ أطفالها، وليس من السَّهل معرفة ما إذا كانت تحبُّ زوجها، ولكنَّها تحترمه، وتعتزُّ به^١.

وتحرص المرأة في المجتمع الفلَّاحيِّ الفلسطينيِّ على القيام بواجباتها اليوميَّة، وتتكبُّ على عملها بكلِّ جدِّ ونشاطٍ، وعادةً ما يبدأ يومها في وقتٍ مبكِّرٍ من الصِّباح، حيث تتولَّى النِّساء والغتبات الصِّغيرات جلب الماء من الينابيع، يتسابقن للوصول إليها؛ للظَّفَر بالدَّور الأوَّل، وبخاصَّةٍ عندما يكون نبع الماء صغيراً، أو شحيحاً؛ لأنَّ مَلء الجرَّة يستغرق وقتاً طويلاً^٢. وتبدأ الفتاة الصِّغيرة بحمل جرارٍ صغيرةٍ على رأسها، تثبَّتْها بيديها، وبعد أن تكبر ستمكَّن من حمل جرَّةٍ كبيرةٍ ثقيلةٍ مائلةٍ إلى الأمام دون أن تمسكها بيدها، وقد تزن ثلاثين رطلاً، ومع الوقت يُصبح عنقها قوياً يتأرجح برشاقة، وسهولة دون أن تسقط الجرَّة عن رأسها، وقد يقول أحدهم، وهو يشير إليها: "انظر، إنَّها قويَّة، تحمل جرَّتْها مثل عُرْف الدِّيك"^٣. ويجب عليها الدَّهاب غير مرَّةٍ في اليوم الواحد إلى النَّبع، أو البئر؛ لجلب المياه. ومن واجباتها أيضاً غسل الملابس، حيث تأخذها إلى النَّبع، أو الجدول، أو البئر القريب^٤، فتقعها، ثمَّ تضعها على صخرةٍ، وتضربها بدبَّسةٍ صغيرةٍ، ثمَّ تتركها؛ لإزالة الأوساخ عنها، أمَّا إذا كان الفستان مطرَّراً بالحريز، فلا يصحُّ ضربه بالعصا، بل تفرك الأوساخ بفتات الخبز^٥.

ومن المعلوم أنَّ تنظيف حبوب المحاصيل، وغربلتها، وتنقيتها من الشوائب، والبذور الغريبة تقع على عاتق النِّساء، وإذا ما استيقظت فجرًا فسوف تسمع صوت المطاحن الحجرية خلال طحن المرأة القمح؛ لتحويله إلى دقيق^٦. ويجب على الفتاة عندما تكبر رعاية الأطفال، وتسليتهم، ومساعدة أفراد العائلة الأكبر سنًّا في أعمالهم، وقد يُطلب من النِّساء، وصغار السنِّ -في كثير من الأحيان- أعمالاً مخصَّصة في الأصل للرجال، كالعمل في مزارع الكروم، وقطف الزَّيتون، والمساعدة في حمل الأغراض إلى السُّوق، أو في حراسة بيادر الغلال، وكروم العنب والبساتين^٧. وتتولَّى المرأة أيضاً أعمال التَّنظيف، وطهي الطَّعام للعائلة^٨، وإطعام الحيوانات والطُّيور^٩.

^١ صالح، الأدب الشعبي، ص٢٨٦-٢٨٨، حمودة، رام الله العثمانية، ص٢٦٩، Grant, The People Of Palistine, p.49.

^٢ نيروز، رام الله، ص٢٥٣، صالح، الأدب الشعبي، ص٢٨٨، Grant, The People Of Palistine, p.49.

^٣ نيروز، رام الله، ص٢٥٣، صالح، الأدب الشعبي، ص٢٨٩، Grant, The People Of Palistine, p.68.

^٤ أبو ريا، رام الله، ص٦٨.

^٥ حمودة، رام الله العثمانية، ص٢٦٩، Grant, The People Of Palistine, p.92.

^٦ نيروز، رام الله، ص٢٥٣، Grant, The People Of Palistine, p.49.

^٧ Grant, The People Of Palistine, p.68.

^٨ قدورة، تاريخ مدينة رام الله، ص٩٥، طوقان، ابو علي، توفيق، الامثال العربية، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٨، ص١٢٣.

^٩ نيروز، رام الله، ص٢٥٣، Grant, The People Of Palistine, p.92.

وتقع على عاتقها أيضًا مهمة القيام برحلات طويلة عبر البراري والقفار؛ لجمع الأشواك، والأغصان، والحطب، أو الأعلاف العشبية، تحملها على رأسها^١، ثم تكديسها، وبخاصة الأشواك، في صورة أكوام كبيرة، وتتقنها بعمود طويل ثم تحملها فوق كتفها، وبعد الوصول إلى المنزل، تضع فوقها حجارة ثقيلة؛ لتثبيتها^٢. وخلال أوقات فراغها، تهتم بنظافة جسمها، وتغسل شعرها، وتسرحه، وكذلك تنظف العملات المعدنية التي تطوق رأسها، كما تغسل رؤوس أطفالها^٣.

المأكولات والمشروبات

يُعدُّ خبز القمح العنصر الأهم في طعام الفلاحين الأثرياء، ويضاهي دقيقه في الجودة دقيق غراهام (*Graham Wheat*)، أما عامة الناس، وقرأؤهم فيأكلون خبز الشعير، أو الدخن، مع العلم أنَّ الشعير، بالإضافة إلى القش، يُقدّم طعامًا للخيل، والحمير، والبغال. ويُقَى القمح من الشوائب، وبخاصة الزوان، الذي إن طحن مع القمح، وصار دقيقًا، فسوف يسبب خبزه الدوخة والغثيان لمن يتناوله، وبعد الطحن في الصباح الباكر، تجلس المرأة على الأرض خارج باب بيتها، وتعجن الدقيق في وعاء خشبي، ثم تغطيه بصينية من القش، وعادة ما تحتفظ بكتلة من العجين للدفعة التالية؛ لتخميرها. وعندما يكون جاهزًا، تحمله على رأسها إلى الفرن وهو مغطى، وفوقه قُبعة مليئة بالدقيق الجاف؛ لاستخدامه في التكوير، والبسط^٤.

وتشترك غير عائلة في فرن واحد، وهو عبارة عن سقيفة بداخلها بيت النار، والأخير قبو طيني مرصوفة أرضيته بحجارة صغيرة^٥؛ ليوضع عليها العجين، ثم يُغلق بغطاء، ويُستخدَم الجفت، وأغصان الشجر، وروث الحيوانات المجففة لإشعال النار بالقرب من العجين حتى يصبح خبزًا. وتضطر المرأة إلى انتظار دورها، فتجلس إلى جانب غيرها من النساء، يتحدثن، وقد تُحضر معها رقعة للتطريز، فتشغل نفسها بها. ويخرج الخبز من الفرن لذيذًا طريًا ذا سطح متموج بفعل الحجارة، ويبلغ سُمكه من ربع بوصة إلى نصف، وعادة ما يكون المخصّص للبيع في المتاجر مصنوعًا من دقيق أكثر نقاءً، والأرغفة أصغر حجمًا، وأحيانًا أكثر سُمكًا.

وأما البرغل فيجب الحصول عليه من أفضل أنواع القمح الأبيض، ويبلغ سعره ثلاثة قروش^٦ للرطل^٧، أو حوالي أحد عشر سنتًا مقابل ستة أرطال وربع باوند، ويُعدّ كطعام شتوي، حيث يُغلى القمح بعد تطهيره من الشوائب

¹ Grant, The People Of Palistine,p,49

² Grant, The People Of Palistine,p,36، ٩٦ص، ١٩٨٣، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة،

³ Grant, The People Of Palistine,p.92

^٤ قدورة، تاريخ مدينة رام الله،ص٩٧

^٥ الطابون: يصنع هذا الفرن من نوع خاص من التربة الممزوجة بالتبن على شكل قبة لها فوهة أعلاها، ويفرش داخله قطع من الحجارة الملساء الصغيرة كانوا يحضرونها من الأودية تسمى رصف، أبو ريا، رام الله،٦٦

^٦ القرش: يساوي أربعين بارة، أبو ريا، رام الله،ص١١٨، قدورة، تاريخ رام الله،ص٤١

^٧ أبو ريا، رام الله،ص١١٩

حتى ينضج جزئياً، ويُشَرُّ تحت أشعة الشمس حتى يجفّ، ثم يُطْحَن بواسطة المطحنة اليدويّة حتى يصبح كالأرزّ المكسّر، وبعد ذلك تُزال القشور، فيصبح جاهزاً، ويُخزّن لفصل الشتاء، كما يُمكن تحضير القمح المطحون جزئياً، المُسمّى الجريشة، الذي يُطبخ، ويُؤكّل. وكذلك القليّة (كليّة) التي تُصنّع بتحميص حبوب القمح النّاضجة.

ويحافظ الفلاح الفلسطينيّ على أصالة طعامه، ويتجنّب تناول الأصناف الغريبة^١. وغالباً ما يتناول فطوره عند منتصف الضّحى، وهي وجبة خفيفة، وبعد الظّهر، يتناول وجبة الغداء، الوجبة الرئيسيّة، وفي المساء يتناول وجبة العشاء، وهي المفضّلة عند كثيرين. والشّائع بين النّاس أكل المجموعة من طبق واحد، وإذا كان يحتوي على الأرزّ، يكوّر الفرد قبضة منه على شكل كرة، ويضعها بالفم بواسطة الأصابع، وفي بعض الأحيان بالملاعق الخشبيّة، ويؤكّل اللحم باليد. وخلال تناول بعض الأصناف، يجلس الفرد جلوس القرفصاء، ويضع الخبز على ركبته، ويقطع منه، ثمّ يغمس اللّقمة في الطّعام، وبخاصّة إذا كان زيتاً، أو لبناً. ولا تأكل النّساء مع الضّيوف، بل في مكان آخر بعد الرّجال، حيث يُدفع إليهنّ بما تبقى. وعندما يكون الفلاحون في الحقل عادةً ما يأخذون طعامهم معهم، وفي بعض الأحيان، تتولّى النّساء والأطفال إحضاره لهم من القرية^٢، وحينها يجتمعون؛ لتناوله، ويدعون المارّة إليه^٣.

ويستهلك الفلاحون كمّيّات كبيرة من الأرزّ، وبخاصّة الياباني الأكثر جودةً، حيث ينتفخ، ويمتصّ السّمَن امتصاصاً أقلّ خلال الطّبخ، وهو الأعلى ثمناً، ولهذا يُشترى وفق الحاجة دون تبذير، ويمكن شراء كيسٍ وزنه مئتان وخمسة وعشرون باونداً في بعض الأحيان مقابل خمسة دولارات، وغالباً ما يرى المرء في الأسواق أرزاً ملوّناً بمسحوقٍ أحمر، ويضيف البعض الصّنوبر إلى الأرزّ، فيمنحه طعماً شهياً^٤.

ويُعدّ طبقُ المقلوبة^٥ من الأطباق المشهورة، ويتكوّن من مزيج من الأرزّ والبادنجان واللحم المطبوخ في طنجرة عميقة، وبعد نضوجها تُقلّب؛ ومن هنا جاء اسمها^٦. ويُعدّ العدس من المحاصيل الحقلية المهمّة عند الفلاحين، حيث ينقونه بعد حصاده من الشوائب، ويُطحن جزءٌ منه طحناً خشناً، ويُخزّن العدس بعد معالجته بزيت الزيتون؛ لحمايته من حشرة السّوس، ويستهلك طوال العام^٧، ويدخل في طبخ المجدرة^٨، أو العصيدة، وهي خليطٌ

¹ Grant, The People Of Palistine,p,87

² Grant, The People Of Palistine,p,91

³ Grant, The People Of Palistine,p,89

⁴ Grant, The People Of Palistine,p80

^٥ ابو ريا، رام الله،ص٦٤

⁶ Grant, The People Of Palistine,p,85 لجنة الابحاث الفلسطيني، دراسة في المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني، ص٨٥

الاجتماعية والتراث الشعبي الفلسطيني، جمعية انعاش الاسرة، البيرة، ص١٣٨

⁷ Grant, The People Of Palistine,p,79

^٨ المجدرة: مصنوعة من العدس والأرز أو البرغل، ويضاف إليها البصل المحمّر، قدورة، تاريخ مدينة رام الله، ص٩٧ ابو ريا، رام

الله،ص٦٣

من الأرز، والعدس، والبصل المفروم المقلّي. ويُصنَع طبق الحِمَص من الحبوب المجفّفة المسلوقة والمهروسة، ويُضاف إليه زيت الزّيتون، والطّحينة، والأخيرة خليطٌ من زيت الزّيتون، والسّيرج المستخرج من بذور السّمسم، والمواد الحامضة، كالخلّ، أو عصير الليمون^١.

أما الكبّة فهي من المأكولات المميّزة، وهي مزيجٌ من اللحم والبرغل، تُطحن في الهاون، وتُعبَن معًا حتّى تصبح كتلةً واحدةً، ثمّ تُقسَم إلى وحدات شبه كروية، وتُقلَى بالسّمْن مثل الكفتة^٢. ويتناول الفلاحون أمخاخ الأغنام المطبوخة كطعام شهّيٍّ ومغذٍّ للغاية^٣. ويتوفّر لحم الضأن، والماعز، والبيض في معظم القرى، وينشط قليل من الفلاحين في اصطياد الغزلان، وطيور الحمام، والسّمان، والحجل، وكذلك الطيور الصّغيرة^٤. أمّا السّمك فهو من المأكولات الشّعبيّة عند أهل السّواحل، بما فيها بحيرة طبرية. ويؤكل الجراد في بعض النّواحي من فلسطين، وعادة ما يُجفّف، أو يُحمّص، وتُحكى قصّة ومثّل حول قوّة الجراد: اصطاد رجلٌ جرادة، وأمسك بها بقدميها، وشواها على النّار، ولمّا وضعها في فمه لم يطبقه تمامًا عليها، حتّى لا تؤلمه سخونتها، فهربت بعيدًا، فقيل: "أفلت من جرادة"^٥.

ويطلق السّكان مصطلح المحاشي، أو المحشي على جميع الأكلات التي تعتمد على حشو العنصر الرئيس فيها باللحم، والأرز، أو الأرز وحده، وتُعدّ من الأكلات الزّائجة في البلاد، ويُطلق على الباذنجان "شيخ المحشي"؛ نظرًا لتوفّره بكثرة، ووجود غير طريقة لإعداده، فإذا قالت المرأة لزوجها خلال موسم الباذنجان: "لا أعرف ما الذي سأقدّمه للعشاء"، فإنّ ذلك سيكون سببًا كافيًا لطلاقها؛ "فعند البطون تغيب الدّهون"، كما يفيد المثل العربي^٦. ومن المحاشي أيضًا الكوسا المحشي باللحم والأرز المسلوقة، فضلًا عن ورق العنب الذي يصبح بعد حشوه باللحم والأرز على شكل لفافات صغيرة، وأُعجب أحد الرّحالة بطعمه فقال: لو كانت هناك نقانق في الجنّة، فستكون من هذا النّوع. ويُطلق المصطلح المذكور أيضًا على الحملان والدّجاج المحشوة بالأرز. وقد يُضاف عصير الليمون إلى هذه العائلة من المأكولات، كما يُقدّم اللّبن والسّلطات. أمّا دهون الطّهي الشائعة فهي زيت الزّيتون، والسّمْن، والسّيرج^٧.

¹ Grant, The People Of Palistine,p,85

^٢ الكبّة: هي من البرغل المسلوقة بشكل طابطة محشوة باللحم والبصل والصنوبر والبهارات، قدورة، تاريخ مدينة رام الله، ص٩٦ قدورة، تاريخ رام الله، ص٩٦

³ Grant, The People Of Palistine,p,85 المطبخ في الغربية والشرقية والغربية في المطبخ الفلسطيني، ط١٩٩٧، ص٢، ص٦٨

⁴ Grant, The People Of Palistine,p,86

⁵ Grant, The People Of Palistine,p,84، ص١٥٠، زعرب، الطهي والحلويات، ص١٥٠

⁶ Grant, The People Of Palistine,p,84، ص١٣٧-١٤٠، زعرب، الطهي والحلويات، ص١٣٧-١٤٠

⁷ Grant, The People Of Palistine,p,83,85، ص١٦٣، زعرب، الطهي والحلويات، ص١٦٣

⁸ Grant, The People Of Palistine,p,85، ص١٣٩، ربيع، دراسة في المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني، ص١٣٩

ويُعَدُّ الملبَّس من الحلويات الرَّائجة بين الفلاحين، ويعني من النَّاحية اللُّغويَّة: الشيء المغطَّى، ويتكوَّن من حبوب الحِمص المحمَّصة المطليَّة بالسُّكَّر. ومن الحلويات أيضًا الجلي أو الهلام الذي يُسمونه أحيانًا "تظلي"، وتقدِّم للضيوف قبل القهوة، التي يجب أن تكون دائمًا آخر ما يُقدِّم لهم، ويُمرَّر طبق من هذه الحلوى مع عددٍ من الملاعق، وبعد أن ينتهي الضيف من الأكل، يضع الملعقة المتسخة في وعاء ماءٍ مُعدِّ سلفًا. كما يحبُّ النَّاس أكل العسل الذي يدخل في صناعة عديد من أنواع المعجنات، والكعك، والحلويات. أمَّا الحلاوة التي تشبه حلوى دبس السُّكَّر، فتُصنَّع من زيت السِّمسم الذي يمنحها نكهة لذيذة، ويستهلكها الفلاحون بكميَّات كبيرة، وبخاصَّة مع الخبز. وقد يُصنَّع من القطين طبقٌ يُسمَّى حُببُصة إذا طُبِّخ مع اليانسون، كما تُصنَّع قرون الخروب النَّاضجة، ولها نكهة تشبه الشوكولاتة، ويُمكن طهي عصير القرون الخضراء مع الحليب والسُّكَّر، فتنتج حلوى لذيذة^١.

وفي المدن، يحبُّ النَّاس تناول الحليب بشكلٍ دائمٍ^٢. ومن ناحيةٍ أخرى، لا يحوِّل الفلاحون المسلمون العنب إلى نبيذ، ولا يعاقرون الخمر، والمشروبات الكحولية^٣؛ لأنَّها محرَّمةٌ عليهم^٤، أمَّا معظم المسيحيين فيفعلون، وبخاصَّة في الأعياد، حيث يقَدِّم الرُّهبان العرق وكونياك العنب الأصليِّ للزَّائرين، ولم تكن هذه العادة منتشرةً في فلسطين، ولكنَّها بدأت بالظهور؛ لكثرة الزُّوَّار الأجانب، ورجال الإرساليَّات التَّبشيريَّة الذين جلبوا معهم هذه العادة إلى المدن والقرى الرِّيفيَّة المسيحيَّة، فضلًا عن قيام المستعمرات اليهوديَّة التي أنشئت حديثًا بصناعة الخمر والنبيذ، ويُصنَّع الأخير من نفايات العنب في بعض الأحيان، ويُسميَّه المواطنون عرقًا. ومع أنَّ شرب الخمر من المحرَّمات في الإسلام، إلَّا أنَّ ما يقرب من مئتين وخمسين مسلمًا في القدس يعاقرونها، فضلًا عن المسؤولين الأتراك. وقيل: إنَّ فتاةً مسلمةً في الخليل استاءت من أخيها الذي اعتاد على شرب الخمر، فقالت له: "لماذا تشرب يا أخي مثل المسيحيين!"، ومن الجدير بالذِّكر أنَّ السُّكَّان يقولون عن السِّكِّير المدمن على الخمر: "فلان يشرب بالقُدرة"^٥.

اللباس:

من المعروف أنَّ زيَّ الفلاحين أكثر جمالًا وتواضعًا ورشاقةً من الزيِّ الأوروبيِّ، ومن العيب لدى الفلاحين أن يتشبَّه أحدهم، سواءً كان ذكرًا أو أنثى، بالأوروبيين في الملبس، كأن يرتدي الرَّجل بنطالًا، كما تشعر المرأة

¹ Grant, The People Of Palistine,p.86-88

² Grant, The People Of Palistine,p.26

³Grant, The People Of Palistine,p.88

^٤ قدورة، تاريخ مدينة رام الله،ص٩٨

⁵ Grant, The People Of Palistine,p.89، نيروز، رام الله، ص١٧٦،

بانحطاط في ذوقها إذا ما لبست لباسًا مشابهًا للنساء الغربيات^١. ونادرًا ما يحصل الأطفال الفقراء على أكثر من ثوبٍ واحدٍ وقبعةٍ بُدائيةٍ رقيقة^٢، وإذا كان والداه ميسوري الحال، فيرتدي رداءً قماشياً صغيراً مطرّراً، وبضعة أساور، أو حباتٍ زرقاءٍ منبّتةٍ في المقدّمة. ومع تقدّمهم في العمر، يحصل الأطفال على سترةٍ فوق قميصٍ صغير^٣.

وتضع الفتاة الصّغيرة صفًا من العملات المعدنية على غطاء رأسها، وشالاً صغيراً، أو وشاحاً حول خصرها. وفي الاحتفالات^٤، قد يُسمح للفتاة الصّغيرة بارتداء سترة والدتها، أو شالها، ويجب طيّ الشال عدّة مرّاتٍ. وتُعدّ سترة بيت لحم، المطرّزة بالحريير الأصفر والأحمر والأخضر، التي يشيع استخدامها في الاحتفالات، غايةً في الجمال. وترتدي المرأة الخلق^٥، وهو ثوبٌ طويلٌ، وفوقه النقّصيرة^٦: سترة زرقاء صغيرة مصنوعة من القماش، أو من جلد الغنم، وتلبس في أثناء العمل فستاناً أزرق داكناً. أمّا غطاء الرأس^٧ فيتمثّل بخرقه مطرّزة مصنوعة من الكتان مع درزة من الحريير، تثبّت في الشعر بوساطة مشابك خاصّة، وقد تغطّي رأسها بغطاءٍ صغيرٍ من القماش المطرّز والمزّين بكثافة بالقطع النقديّة^٨، وتحيط رأسها بالصّفّة: صفٌّ من العملات المعدنية فوق الرأس على قلنسوة، أو طاقية، أو الشكّة: صفٌّ من العملات المعدنية، أو الأساور على الجبين^٩. ومن أدوات زينة الرأس أيضًا الإزناك^{١٠}: سلسلة تشتمل على قطعٍ نقديةٍ عالية القيمة تُعلّق بالرقبة، وتظهر تحت الذّقن^{١١}.

ويرتدي الرّجل الدّماية، أو القمّاز^{١٢}، وهو لباسٌ طويلٌ، وفوقه الصّدرية، ثمّ عباءة، أو معطفًا صوفيًا مخطّطًا، ويعتمر اللّفة التي تتكوّن من طاقية قطنية فوقها اللّباد، وهو عبارة عن قبعة من الصّوف تلتصق بالرأس، ثمّ يوضع فوقهما المنديل: وشاحٌ رقيقٌ، ويُقال له: محرمة إذا كان ثقبًا أبيض اللون^{١٣}، أو كفيّة^{١٤} إذا كان أصفر

¹ نيروز، رام الله، ص١٧٦، سرحان، نمر، الزي الشعبي الفلسطيني العربي في القدس Grant, The People Of Palistine,p.90
ضمن كتاب التراث الشعبي الفلسطيني في القدس الشريف (هوية وانتماء) ، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة القدس المفتوحة، رام الله، ٢٠١١، ص٣٠

^٢ أبو ريا، رام الله، ص٧٣

³ نيروز، رام الله، ص١٧٧، Grant, The People Of Palistine,p.67

⁴ نيروز، رام الله، ص١٧٧، Grant, The People Of Palistine,p.91

^٥ نيروز، رام الله، ص١٧٧ أبو ريا، رام الله، ص٧١، عرنيطة، الفنون الشعبية في فلسطين، ٢٣٠

^٦ أبو ريا، رام الله، ص٧١، نيروز، رام الله، ص١٧٧

^٧ نيروز، رام الله، ص١٧٦ أبو ريا، رام الله، ص٧١

^٨ نيروز، رام الله، ص١٧٦ عرنيطة، الفنون الشعبية في فلسطين، ٢٣١

^٩ أبو ريا، رام الله، ص٧٢

^{١٠} أبو ريا، رام الله، ص٧٣

¹¹ Grant, The People Of Palistine,p.67

^{١٢} نيروز، رام الله، ص١٧٧، أبو ريا، رام الله، ص٧٣

^{١٣} نيروز، رام الله، ص١٧٧

فاخرًا، وفوق ذلك يُلبس الطربوش الأحمر العريض، وتُلَفُّ الأوشحة حول الطربوش؛ لجعله ثقيلًا، وعادةً ما يضع الرَّجُل في لَفْتِه أشياءه الصَّغيرة، مثل المرآة، ومشط اللّحية، وأنايب سجائر، ودخان، أو توباكو، وغيرها. ومما يحمله على ملابسه حزام الخرطوش، وزرودة: سلسلة لتعليق السِّكِّين، وشبريَّة، وزند: قطعة من الفولاذ؛ لإشعال الشرارة، وصوَّانة^٢. وفي بعض الأحيان يرتدي الشَّباب عباءةً سوداءً رقيقةً، أو وشاحًا من الحرير على الرأس^٣.

ونادرًا ما يرتدي الفلاحون الجوارب؛ لأنَّهم يَعُدُّونها ضارَّةً بالصِّحة^٤، ويُسمَّى الحذاء (صُرماية)^٥، وينتعل الرَّجُل حذاءً واسعًا من جلد الجاموس الهنديِّ الخامِّ المستورد^٦، أمَّا الأجزاء العليا من الحذاء فمصنوعةٌ من جلد الماعز الأحمر، أو البنيِّ. وقليلًا ما تنتعل المرأة الأحذية داخل القرية؛ خوفًا من السُّخْرية من النِّساء^٧ الأخریات اللواتي سينعتنها بالاسترجال، والغطرسة^٨. أمَّا في الحقول والأماكن الوعرة، فإنَّها تنتعل أحذيةً خشنةً تشبه تلك الخاصَّة بالرِّجال؛ لتتمكَّن من المشي فوق الحجارة، والأشواك^٩. وكثيرًا ما تُشاهد حافية القدمين^{١٠} خلال العمل في البيت، والقرية^{١١}.

الأعياد والمناسبات :

ومن المُعتاد تبادل عبارات المجاملة في الأعياد، وخلال الاحتفالات الدِّينيَّة، والرَّسميَّة، وعند الاجتماع في دور الصِّيافة، والأسواق، وتبادلها النِّساء أيضًا في الشَّارع، وعند الينابيع، وفي الأفران، ويهنئ السُّكَّانُ الأجانِب الموجودين بينهم إذا علموا بأيِّ مناسبةٍ تخصُّهم، أمَّا بخصوص الدَّعوات والزِّيَّارات، فقد يدعو شيوخ القرية ممثلًا عن الحكومة، ويستضيفونه بمناسبة عيد ميلاد السُّلطان، كما يتبادل المسلمون والمسيحيون الزِّيَّارات خلال الأعياد، ومن المُعتاد زيارة الجار العائد من الغُربة؛ للاطمئنان عليه، والاستماع إلى تجاربه^{١٢}، وربَّما يتمُّ تبادل الدَّعوات؛ لحضور

^١ الكفية او الكوفية: لباس للرأس يشبه العمامة، أبو ريا، رام الله، ص٧٣

^٢ Grant, The People Of Palistine, p.91، ص٣٠، سرحان، الزي الشعبي الفلسطيني، ص٣٠

^٣ Grant, The People Of Palistine, p.159

^٤ Grant, The People Of Palistine, p.91، ص٣١، سرحان، الزي الشعبي الفلسطيني، ص٣١

^٥ Grant, The People Of Palistine, p.49

^٦ أبو ريا، رام الله، ص٧٣

^٧ Grant, The People Of Palistine, p.91

^٨ Grant, The People Of Palistine, p.49، ص٣٢، سرحان، الزي الشعبي الفلسطيني، ص٣٢

^٩ Grant, The People Of Palistine, p.91

^{١٠} أبو ريا، رام الله، ص٧٢

^{١١} Grant, The People Of Palistine, p.49، ضمن كتاب التراث الشعبي المقدسي، ضمن كتاب التراث الشعبي الفلسطيني، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة القدس المفتوحة، رام الله، ٢٠١١، ص

^{١٢} Grant, The People Of Palistine, p.160، ص٢١٥، الدراويش، البعد الديني، ص٢١٥

الولائم. وتتعدّد المناسبات التي تدعو الفلاحين للتّزاور، كالولادة، والزّواج، والموت، والعيد، كما يجتمعون معاً؛ للتّحدّث، وشرب القهوة، وتدخين النّبغ^١.

وغالبا ما تقتصر الزّيارات الاجتماعيّة للمنازل على الأقارب، والجيران، والأصدقاء^٢، ويُعدّ إكرام الضّيف، وإسعاده خلال الزيارة واجبا اجتماعيا، وأخلاقيا، حيث يُرحّب المضيفُ بالزّائر بحفاوة، ويدعوه إلى الدخول، بقوله: "قوت"، "تفضّل"، "أهلاً وسهلاً"، فيدخل، ويُدعى إلى الجلوس في أبعد نقطةٍ عن الباب، ثمّ يجلس المضيفُ في أكثر الأماكن تواضعاً، قريباً من الباب^٣. ويستهلُّ الضّيفُ كلامه بالسؤال عن صحّة المضيف وعائلته، وليس من المعتاد أن يُسأل أحدٌ عن زوجته، وخلال الزّيارة عادةً ما تسود أجواء من الأدب، والاحترام، ويتمحور الحديث حول المواضيع الاجتماعيّة، وتسير الأمور بسلاسة، وإذا طغى على الحديث طابع السّعي لتحقيق مصالح شخصيّة، فإنّ ذلك من شأنه التّأثير سلباً أجواء الزّيارة^٤.

وتقدّم العصائر، وبخاصّة عصير الليمون، ثمّ الفواكه الطّازجة والمجفّفة، وأخيراً القهوة، ولا يستطيع الزّائر المغادرة قبل احتسائها، وإذا اضطرّ إلى ذلك مبكراً يُسرّع في عملها، وتقديمها، ولا يوضع السّكر في الفناجين، بل يُضاف خلال الطّهي، ويشربها الزّائر بفنجانٍ بحجم البيضة من دون مقبضٍ، أو صحنٍ، ولا ينبغي أن يكون ملانٍ حتّى حافّته، ويُقال: إنّ البدو يُعدّون الفنجان الممتلئ علامةً على العداء. وغالباً ما يسعى المضيفُ اللطيف إلى منع الضّيف إنهاء زيارته بسرعة، وعندما يهّم الأخير بالمغادرة، يقول: "بخاطرك"، فيجيب المضيف: "مع السّلامة"، ويرد الضّيف: "الله يسلمك" أو "سلمت"^٥.

الأوبئة والزلازل:

تعرّضت رام الله، كغيرها من المدن والقرى في وسط فلسطين، لوباء الكوليرا القادم من مصر سنة ١٩٠٢م^٦، وعبر أهلها عن أملهم أن يتغيّر اتجاه الرّياح الغربيّة القادمة من البحر؛ لاعتقادهم أنّها تحمل معها (الهواء الأصفر) من المناطق المُصابة^٧. ومن ناحيةٍ أخرى، حرصوا على التّقيّد بالتّعليمات الصّحيّة؛ ففرضوا على

¹ Grant, The People Of Palistine,p.161

² حمودة، رام الله العثمانية، ص ٢٥٢-٢٥٣، Grant, The People Of Palistine,p.159,

³ حمودة، رام الله العثمانية، ص ٢٨٤، Grant, The People Of Palistine,p.160,

⁴ الدراويش، البعد الديني، ص ٢١٧، Grant, The People Of Palistine,p.160,

⁵ حمودة، رام الله العثمانية، ص ٢٨٥، Grant, The People Of Palistine,p.161,

^٦ أبو ريا، رام الله، ص ١٠٣

⁷ حمودة، رام الله العثمانية، دراسة في تاريخها الاجتماعي، (١٥١٧-١٩١٨م)، Grant, The People Of Palistine,p.104، تقديم: سليم تمّاري، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط ١، ٢٠١٧، ص ١٧١. العارف، عارف، تاريخ غزة، مكتبة الأندلس، القدس، ١٩٦١، ص ٤٣٩

قريتهم حجراً صِحِّيًّا، وعزلوها عن محيطها الخارجي، حيث تركز الرجال على الطرق المؤدية إليها، وفرضوا عليها طوقاً مشدداً؛ لمنع أي شخصٍ من المناطق الموبوءة من الدُخول، فأصبحت معزولةً عن القدس، ونابلس، والأغوار، وسائر القرى والمدن الساحليَّة الغربيَّة^١. وفي مساء الجمعة، الحادي والعشرين من نوفمبر، فرَّ بعض مسيحيي يافا إلى رام الله، فرفض أهلها استقبالهم، وطردوهم بالتهديد والحجارة^٢، وشدّدوا الحراسة حولها. وساهمت رام الله في محاربة الوباء في المناطق الأخرى من خلال طبيبها فيليب معلوف، الذي استدعته الحكومة؛ من أجل الإشراف على وحدة الحجر الصِحِّيِّ في باب الواد بالقرب من القدس^٣.

ويروي المؤلّف مذكّراته حول الزلزال الذي حدث يوم ٣٠ مارس ١٩٠٣م خلال وجوده في القرية: "في حوالي الساعة الثّانية عشرة وخمسين دقيقة استيقظتُ والسّيدهُ غرانت على وقع أصواتٍ عاليةٍ متواليّة، فاعتقدنا أنّ النّاس في الخارج يهزّون بابنا بعنف، ثمّ بدأتِ الغرفة كلّها تهتزُّ ومحتوياتها تتأرجح، بما في ذلك الأسرة، وأواني المطبخ، ومغسلة الحّمّام، فأدركنا فوراً أنّه زلزالٌ، وخلال ذلك شعرنا أنّ جدران المنزل تتساقط، وشعرنا بالغثيان، وركضت السّيدهُ غرانت إلى الجزء البعيد من المنزل، حيث كانت مهاجع مدرسة البنات، ووجدتهنّ في حالة من التوتّر والانفعال، وأرادت بعض الفتيات الأصغر سنّاً معرفة ما الذي جعل أسرتهنّ تهتزّ، وقالت إحداهن: إنّ يسوع قد جاء، بينما بقيت إحدى الفتيات نائمةً ولم تستيقظ، وتبيّن أنّ منزل تدريب الفتيات قد أصيب بتشقّقاتٍ، وبعد وقتٍ قصيرٍ^٤، سمعنا جداراً يسقط في كرم العنب الواقع إلى الجنوب الغربيّ منّا. وفي مدرسة البنين، وقع صبيٌّ عن السرير، وكان معلّم المدرسة قد أخذ قبل نومه جرعةً قويّةً من الكينين (*Quinine*)، فنام بعمق، ولم يستيقظ إلاّ عندما سقطت رقائيق من السّقف على وجهه، وبقي ولدٌ واحدٌ أو اثنان نائمين، ولم يستيقظا. وكانت المرأة التي تطبخ في مدرسة البنين مندهشةً للغاية، وبدأت بالصّراخ، والصّلاة: "يا ربّي، يا ربّي، مفيش غيرك". وتضرّر منزل الأولاد الذي بُني أصلاً بناءً سيئاً، حيث تصدّعت الأسقف، والأرضيّات، والجدران. أمّا الحارس نيقولا الذي ينام على الأرض في منزلٍ صغيرٍ في الفناء، نجا من حجرٍ كان قد وقع من السّقف، وكان يتنقّل ذهاباً وإياباً إلى عائلته التي تعيش في القرية؛ ليتأكّد أنّهم بخير^٥، وانفصلت جدران أحد منازل الجيران عن بعضها بعضاً، وبات من الصّوروي تشبّيتها بعوارض حديدية من الخارج. ولحقت أضرارٌ في منازل القرية الواقعة في الجزء الغربيّ^٦؛ لأنّها سقائفٌ، أو

^١ نيروز، رام الله، ص ٨٧

^٢ أبو ريا، رام الله، ص ١٠٤

^٣ Grant, The People Of Palistine, p.108-109, دمشق، دار كنعان، العهد العثماني، وصف فلسطين أواخر العهد العثماني، دار كنعان، دمشق، ٢٠١٠، ص ٥٥

^٤ Grant, The People Of Palistine, p.202

^٥ نيروز، رام الله، ص ٨٧

^٦ Grant, The People Of Palistine, p.203

^٧ قدورة، تاريخ مدينة رام الله، ص ٣٩

أكوخٌ مبنيةٌ من الحجارة الفضاضة، حيث سقط بعضها، وتشققت عديدٌ من المنازل الأقوى، والأكبر حجمًا. وكانت مجموعةٌ كبيرةٌ من الحجّاج الرّوس نائمين في رام الله ليلة الزلزال، ولم يُصابوا بأذى، وفي الصّباح استأنفوا سيرهم إلى نابلس. أمّا بخصوص الخسائر البشريّة في رام الله، فلم يُقتل سوى رجلين في منزلتهما؛ بسبب تساقط الحجارة^١.

الخاتمة

تعد كتب الرحلة أو أدب الرحلات مصدرا من أهم المصادر العلمية في عملية التدوين التاريخي بالنسبة للمؤرخين والباحثين في هذا المجال، نظرا لما تحمله بين صفحاتها من معلومات قيمة ونادرة قلما نجدها في كتب التاريخ الأخرى، فهي تصور لنا أماكن وأزمنة لم نكن لنحصل عليها دون مغامرات أولئك الرحالة والمسافرين عبر مناطق الكون. لكن مع ذلك وجب على مستعملها أخذ الحيطة والحذر في عملية النقل منها كما ويجب إخضاعها للنقد التاريخي كون أن كتابات أصحابها غير دقيقة تماما يتخللها بعض الخيال وتسودها صبغة الذاتية.

. وقد وصل عددٌ كبيرٌ من الرّحالة الأجانب إلى فلسطين الذين تعددت دوافعهم وأهدافهم بين دينية توراتية، وإنجيلية مسيحية، وسياسية؛ بهدف إجراء الدّراسات الكفيلة بإنجاح سياسة دولهم الاستعمارية، وحرصوا خلال رحلاتهم على تدوين تفاصيل الأوضاع الجغرافية، والسّياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثّقافية.

كان من بين هؤلاء الرحالة اليهودي غرانت الذي أفرد جزءا من رحلته للحديث عن المظاهر الدينية والاجتماعية لسكان رام الله (المسيحيين والمسلمين) أشارت الدراسة إلى أهم الروايات في سبب نشوء رام الله وأهم العائلات التي سكنتها، وتطرق إلى حياة الدينية فيها وأهم فئات السكان (المسيحيون والمسلمون) ومذاهبهم وطقوسهم وطرق اختيار رجال الدين المسيحيين ولباسهم، ومهام رؤسائهم، وأهم أعيادهم، وقدسيتها الأماكن الدينية لديهم، والعلاقة بين السكان المسلمين والمسيحيين.

أما من الناحية الاجتماعية فقد تناولت الدراسة أهم عائلات رام الله، وعادات الزواج فيها، والاحتفاء بولادة الأبناء، وحالات الوفاة وما يرافق ذلك من طقوس، ومهام المرأة وواجباتها، وأنواع الطعام والشراب، ولباس المرأة والرجل، والأعياد والمناسبات، وبعض الأحداث التي وقعت في رام الله في ذلك الوقت كالأوبئة والزلزل.

ويلحظ رحلة إيهو غرانت (موضوع الدراسة) مظاهر تنقص، فقد أهمل ذكر المدارس الإسلامية، مع العلم أنّها كانت قد ازدادت خلال عهد السلطان عبد الحميد الثاني، الذي عاصره المؤلّف، كما أحجم عن تناول أنماط التّعليم ومناهجه، كما رسم صورةً مبتورةً حول جوانب مهمّةٍ أخرى؛ فأشار إلى قبّة الصّخرة، ولم يذكر المسجد الأقصى، وبدت مظاهر النّقص أيضًا في الصّنائع والحرف والمهن اليدويّة، والطّقوس الدّينية التي أشار إلى بعضها باختصار يفتقد إلى الشّمول، ويظهر الكاتب السّبب الرئيس لتفوّق المجتمع المسيحيّ اقتصاديًا في رام

^١ Grant, The People Of Palistine, p.204

الله إلى عدم التزام المواطن المسيحي بالخدمة العسكرية؛ لأنّ المسلمين فقط هم المؤهلون لذلك، أمّا المسيحيون فيدفعون ضريبة إضافية بدلاً من الخدمة؛ ما يجعلهم متفرّغين أكثر للأعمال الصناعيّة، والتّجاريّة.

الاستنتاجات:

بعد الانتهاء من هذه الدراسة يمكن الخروج بالاستنتاجات الآتية:

- اظهرت الدراسة نوعاً من التسامح بين سكان رام الله من مسلمين ومسيحيين ومرد ذلك هو ميل العثمانيين الى التسامح مع اهل الذمة يهودا ونصارى وقد انبثق هذا الميل اصلاً من الموقف الاصلي والثابت للشريعة الاسلامية والتي كان اغلب سلاطين ال عثمان يحرصون على تطبيقها ويعتبرونها اساساً لحكمهم
- نشطت الدول الأجنبية في شراء الأراضي، وتأسيس الجمعيات التبشيرية، والكنائس، والمدارس، في الوقت الذي بدأ فيه سيلُ الهجرات اليهودية بالتدفق، بتشجيعٍ من القناصل الأجانب، تزامناً مع تنامي نشاط الحركة الصهيونية في أوروبا.
- شكّلت الأعياد والمناسبات الدينية تقويمًا مناسباً؛ لتحديد وقت هطول الأمطار، ففي الخريف، يأتي عيد الصليب في نهاية سبتمبر، فيستبشر الفلاحون بقدومه، وفي عيد القديس جورج (الخضر)، يتوقّع السكان أن تهطل الأمطار بكمية كافية، فيستقبلها المزارع بحراثة الأرض، وبذر الحبوب، وفي عيد الصليب، والقديسة بربارة في شهر ديسمبر، يتوقّع الفلاحون أنّ المطر سيدخل من كلّ فتحة منزل
- أبرز الرحالة غرانت قوة العصبية الدينية بوضوح في المجتمع القروي أكثر من المدني، إضافة إلى اعتقاد عديدٍ من سكان رام الله المسيحيين بوجود القوى الدينية الخفية، ودورها في الحفاظ على الممتلكات الكنسية، وهذه النظرة ظهرت لدى المسلمين بأنّ مقام ابراهيم وفناءه ممتلكاتٌ محميةٌ من ابراهيم الخليل، ولا يمكن سرقة أيّ شيءٍ من محتوياتهما، ولهذا يضع الناس بعض ممتلكاتهم في فناء المقام
- يعتقد عديدٌ من سكان رام الله المسيحيين بوجود القوى الدينية الخفية، ودورها في الحفاظ على الممتلكات الكنسية
- تُعدّ الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية الجهة الدينية المسيطرة في رام الله، وكما جرت العادة في جميع أنحاء الشرق الأدنى، فإنّها تختار رئيس الكهنة، وكبار رجال الدين من ذوي الدّم اليوناني

المصادر:

- العلمي، الأنس الجليل ، ٢ ج، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٣.

- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧

المراجع:

- البخيت، محمد عدنان، دراسات في تاريخ بلاد الشام، أمانة عمان الكبرى، عمان، ٢٠٢٠.

- البستاني، بطرس، دائرة المعارف، ج ٥، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

- جهشان، مورييس، أعيادنا وإيماننا، المركز اللوثيري للخدمات الدينية في الشرق الأوسط، بيروت، (د.ت).

- ابو حجر، موسوعة القرى والمدن الفلسطينية، دار أسامة للنشر والتوزيع، الاردن - عمان، ط ٣، ٢٠١٠.

- حمودة، سميح، رام الله العثمانية (دراسة في تاريخها الاجتماعي) مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط ١، بيروت، ٢٠١٧.

- الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات و الألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦.

- خلف، تيسير، وصف فلسطين أواخر العهد العثماني، دار كنعان، دمشق، ٢٠١٠.

- الخشاب، سامية مصطفى، المرأة والعمل المنزلي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٣

- الدباغ، مصطفى مراد بلادنا فلسطين، دار الهدى، كفر قرع، (د.ت)

- الدجاني، أمين حافظ، المدينتان التوأم رام الله والبييرة، (د.ن)، (د.م)، ١٩٩٣.

- الدراويش، حسين، البعد الديني الاسلامي في التراث الشعبي المقدسي، ضمن كتاب التراث الشعبي الفلسطيني، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة القدس المفتوحة، رام الله.

- ربيع، وليد واخرون، دراسة في المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني، لجنة الابحاث الاجتماعية والتراث الشعبي الفلسطيني، جمعية انعاش الاسرة، البييرة، فلسطين.

- أبو ريا، خليل، رام الله قديما وحديثا، اتحاد رام الله الأمريكي، رام الله، (د.ت)

- زعرب، سهام بغدادي، الطهي والحلويات الشرقية والغربية في المطبخ الفلسطيني، ط ٢، ١٩٩٧.

- سرحان، نمر، الزبي الشعبي الفلسطيني العربي في القدس ضمن كتاب التراث الشعبي الفلسطيني في القدس الشريف (هوية وانتماء) ، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة القدس المفتوحة، رام الله، ٢٠١١

- السعداوي، نوال، دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، المؤسسة العربية لدراسات النشر، بيروت، ١٩٩٠.
- شراب، محمد، معجم بلدان فلسطين، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط٢، ١٩٩٦.
- صالح، أحمد رشدي، الأدب الشعبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- العارف، عارف، تاريخ غزة، مكتبة الأندلس، القدس، ١٩٦١.
- العارف، المفصل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف، القدس، ط٢، ١٩٨٦.
- عبد الملك، بطرس، وآخرون، قاموس الكتاب المقدس، مجمع الكنائس في الشرق الأوسط، بيروت، ط٢، (د.ت).
- عبيدات سليمان، دراسة في عادات وتقاليد المجتمع الاردني، الأهلية للنشر عمان، (د.ت).
- العطارى، سليم حسين، الاغنية الشعبية الفلسطينية، بيت الشعر الفلسطيني، رام الله، ط١، ٢٠٠٨.
- عرنيطة، يسرى، الفنون الشعبية في فلسطين، وزارة الثقافة، السلطة الوطنية الفلسطينية، فلسطين، ط٣.
- ابو علي، توفيق، الامثال العربية، دار النفائس للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٨.
- غنيم، خالد اسماعيل، عادات الزواج وتقاليد في البلاد العربية، دار الياقوت للطباعة والنشر، عمان، ط١.
- الفرحان، يحيى، قصة مدينة رام الله والبيرة، سلسلة المدن الفلسطينية، (٥) تصدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دائرة الإعلام والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية.
- قدورة، يوسف، تاريخ مدينة رام الله، مطبعة رفيدي، رام الله، ط٢، ١٩٩٩.
- القضاة، أحمد حامد، نصارى القدس: دراسة في ضوء الوثائق العثمانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧.
- الموسوعة الفلسطينية الميسرة، رئيس التحرير ناصر الدين الأسد ط٢٠١٣، ٢٠١٣ هيئة جائزة سليمان عرار للفكر والثقافة، اروقة للدراسات والنشر، عمان.
- نزال، رياض، العوامل السياسية والاجتماعية المؤثرة على الدور القيادي للمرأة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بير زيت، ٢٠٠٧.
- نيروز، إبراهيم، رام الله (جغرافيا تاريخ حضارة)، دار الشروق، رام الله، ط١، ٢٠٠٤.
- هيلما غرانكفست، أحوال الزواج في قرية فلسطينية، ترجمة: خديجة قاسم واخلاص القنانوة، المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات، الدوحة- قطر، ط٢٠١٥، ١.
- اليعقوب، ناحية القدس الشريف، البنك الأهلي للنشر، عمان، ط١، ١٩٩٢.

- يونس، نائل، وآخرون، التغيير الاجتماعي في مدينة رام الله والمورفولوجيا والترتيب والاقتصاد غير الرسمي، سلسلة من الأبحاث المتفرقة تصدرها مجلة افاق، جامعة بيرزيت

المراجع الأجنبية:

-The People Of Palestine Enlarged Edition Of "The Peasantry Of Palestine, Life, Manners And Customs Of The Village"

By Professor of Biblical Literature in Haverford College Second edition, 1921

Philadelphia And London.

- Shaheen, naseeb K Apictorial History Of Ramallah, Arab Institute for Research K and Publishing K 1922 K, p24

الانترنت:

- <https://aonlineae.coloradoteenproject.org>

- <https://palinfo.com>

[http:// fedaa.alwehda.gov.sy](http://fedaa.alwehda.gov.sy) ، جمالة، يسرى، صورة المرأة في الأمثال الشعبية، موقع جريدة الفداء ،